تجليد صالح الدقر
تلفون ٢٢٩٧٧

هدية المؤلف
للمكتبة بإذن التقدم
في الجامعة الأميركية
بيروت
٥٦/١٠/٢٧
892.709
Q612nA

١

النفائس

سلسلة أدبية تبحث في الشعر والنثر
تهم الطالب والباحث والمدرس

الوصف في شعر النابغة الذبياني

وصحة نسبة الشعر الجاهلي

بقلم

طه محمد القاضي
(ليسانس في الأدب العربي)

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بيروت آذار ١٩٥٥
الطبعة الاولى

للمؤلف

١ الحب والجمال ومقالات اخرى (نفد)
٢ احاديث الامسيات (نفد) وصادرته الحكومة الاردنية ومنعت تداوله في الاردن بحجة انه يمس الدستور الاردني
٣ على مسرح الحياة (الجزء الاول)
٤ مصرع العدالة . منع من دخول الاردن والعراق والمغرب العربي والسعودية والمحميات .
٥ ضحايا وقرابين .
٦ خلجات واحاسيس . (تحت الطبع)
٧ على مسرح الحياة (الجزء الثاني) يصدر قريباً
٨ منتخبات من التراث الانساني يصدر قريباً
٩ هل العرب بشر ؟ يصدر قريباً
١٠ ايام مع ليلى الجميلة يصدر قريباً
١١ ذات العينين الخضراوين يصدر قريباً
١٢ الوصف في شعر النابغة الذبياني وصحة نسبة الشعر الجاهلي
١٣ الوصف في شعر امرىء القيس يظهر قريباً في سلسلة النفائس
١٤ الوصف في شعر الاعشى : يظهر قريباً في سلسلة النفائس
١٥ مراحل النثر القديم الجزء الاول » » » » »
١٦ مراحل النثر القديم الجزء الثاني » » » » »
١٧ مراحل النثر القديم الجزء الثالث » » » » »
١٨ القرآن اول كتاب نثري عند العرب » » » » »

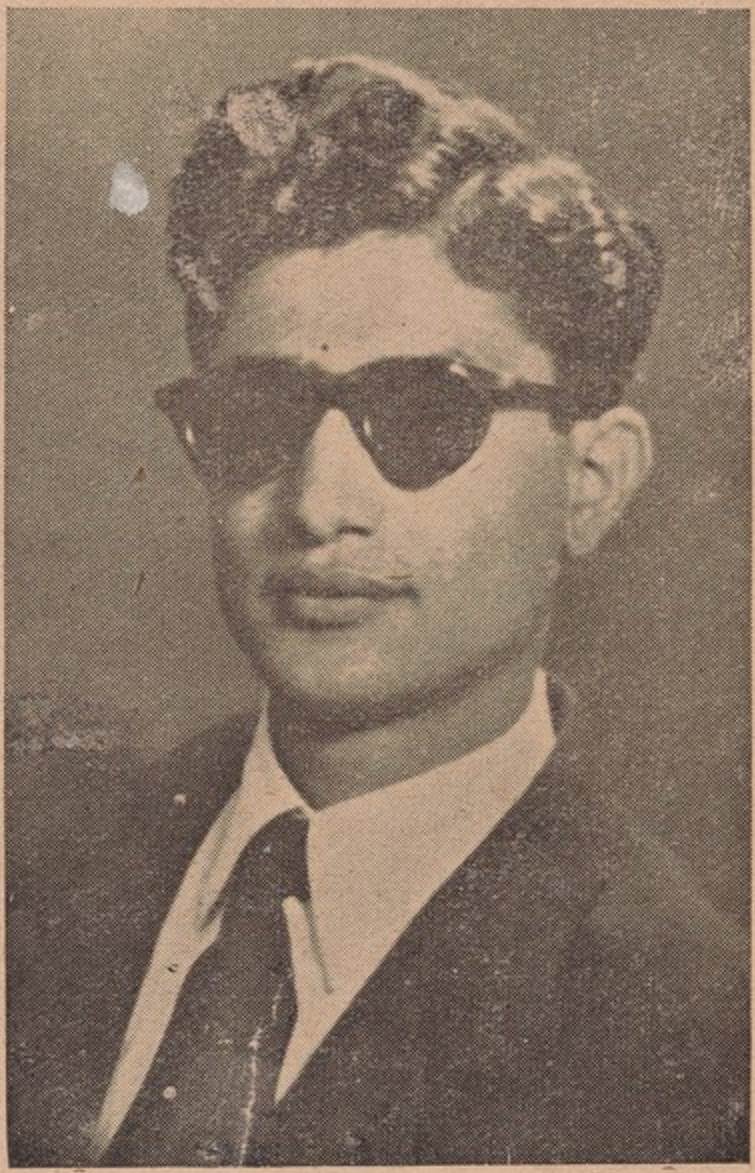

صورة المؤلف

المصادر والمراجع

•

الروائـــع : النابغة الذبياني : ٣٠

ابن قتيبـة : الشعر والشعراء طبعة De beose ،ليون ١٩٠٢

ابو الفرج الاصبهاني : الاغاني ، بولاق ١٨٦٨ خصوصاً الجزء ٩٠

عبد القادر البغدادي : خزانـة الادب ، بولاق ؛ الجزء ١

الاب لويس شيخو : شعراء النصرانية ، بيروت ١٨٩٠

النابغة الذبياني

؟ ٦٠٤ ؟

انقطع النابغة الى مناذرة العراق ، ثم الى غساسنة الشام فكان شاعر بلاط موفور الجانب ، مرغوباً في مدحه . ولكنه لم ينسَ في حالتيه قومه واحلافهم ، فكان يخوض سياسات القبائل المختلفة ويشير وينهى ، فيسمع صوته وتنفذ كلمته . فجمع الى طرق المديح اساليب الشعر السياسي ، وكما انه كان الرجل المحنك المجرب كان الشاعر الحكيم الكامل .

عصره

عاش النابغة الى ما بعد مقتل النعمان ، بدليل ما ذكر صاحب الاغاني (١) من انه لما نعي النعمان الى النابغة وحدث بما صنع به كسرى ، قال « طلبه من الدهر طالب الملوك » ، ثم تمثل بابيات. اما مقتل النعمان فكان نحو السنة ٦٠٢ ، وعليه فقد لا نخطيء اذا اخذنا بقول بعض المؤرخين ان النابغة توفي نحو السنة ٦٠٤ .

---

(١) الأغاني ٢ : ٣٩

ثم نحن نعلم أن النابغة من المعمرين ، « أسن »(١) وترك قول الشعر في آخر حياته . وكان شيخاً ابيض الشعر ، كما يقول هو نفسه ، اذ رثى للنعمان بن الحرث الغساني حوالي السنة ٦٩٩ ؛ وعليه فلا نستغرب ان يكون شاعرنا ادرك المنذر الثالث ، ابن ماء السماء ، ملك الحيرة (٥٠٥ - ٥٥٤) فمدحه ، ومدح خليفته عمرو بن هند (٢) (٥٥٤ - ٥٧٠ ؟) .

حياته - نشأته

اسمه - لقبه

زياد بن معاوية ، بن ضباب ... بن مرة ... بن ذبيان ، بن بغيض ، بن ريث ، بن عطفان الملقّب بالنابغة الذبياني ، المكنى بأبي أمامة (٣) وأبي ثمامة (٤) وأبي عقرب (٥) . اما لقبه فشرحه الرواة شروحاً مختلفة . زعم بعضهم أنه دعي به لانه استعمل لفظة

---

(١) ابو زيد القرشي : جمهرة اشعار العرب ، ص ٦٣

(٢) راجع الديوان طبعة Derenbourg, p. 95

(٣) الأغاني ٩ : ١٦٢ ؛ والتبريزي : شرح القصائد العشر ص ١٥٢ ؛ والبغدادي : خزانة الادب ١ : ٢٨٧ (٤) التبريزي : الموضع نفسه ، وهو يجعل امامة وثمامة بنتين للنابغة (٥) البغدادي : الوضع نفسه ، وهو يدعو بنتي النابغة امامة وعقرب .

« نبغ » في قوله :

وحلت في بني القين بن جسرٍ فقد نبغت لهم منا شؤون (١)

وهو قريب من شرحهم لقب المهلهل بقوله : « هلهلت » (٢)، ولا نرى تحته كبير طائل ، فضلاً عن أن البيت المذكور لم يرد في ديوان النابغة . وزعم بعضهم أنه دعي النابغة لأنه لم يقل الشعر حتى صار رجلاً (٣) وذهب ابن قتيبة الى ابعد من ذلك فقال : « نبغ بالشعر بعد ما احتنك وهلك وقبل أن يُهتر » (٤) وهو ما ينفيه كثير من ابيات الديوان التي نعرفها راقية الى شباب الشاعر . وقال غيرهم ان اللقب يدل على كثرة شعره وغزارة مادته ، من قولهم : نبغت الحمامة اذا تغنت ، ونبغ الماء ، ونبغ بالشعر فكأنهم ارادوا أن له مادة من الشعر لا تنقطع كمادة الماء النابغ (٥) .

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ص ٧٤ : الأغاني ٩ : ١٦٢ — البغدادي خزانة الادب ١ : ٢٨٧ .

(٢) راجع الروائع ٣ : ب

(٣) البغدادي : الكتاب المذكور ١ : ٢٨٧

(٤) ابن قتيبة : الكتاب المذكور ، من ٧٠ .

(٥) البغدادي : الموضع نفسه . — وقد اشتهر عدة « نوابغ » غير شاعرنا اشهرهم سبعة : النابغة الجعدي الصحابي — النابغة بن الديان الحارثي — النابغة الشيباني — النابغة الغنوي — النابغة العدواني — نابغة بن يربوع ويقال له النابغة الذبياني ايضاً — النابغة التغلبي .

شبابه

نشأ النابغة في الوسط من قومه ، لا في الذروة من الشرف ، واذا فلا نرى معنىً لقول الرواة انه « أحد الأشراف الذين غفل الشعر منهم » (١) فضلًا عن ان الشعر لم يفضل من النابغة في شيء ولا نعرف عن شبابه سوى ما نقله دي برسفال من مزاحمته حاتماً الطائي ورجلًا آخر على ماوية ، وفشله في ذلك (٢) .

بين الحيرة ومدن غسان

في الحيرة : قبل ملك النعمان ابي قابوس

وهكذا تمر الايام فنرى النابغة في الحيرة يمدح امراء اللخميين ، متصلا ، على قول الرواة ، بالمنذر الثالث ، ابن ماء السماء (٥٠٥ - ٥٥٤) . ونحن نرجح ان اتصاله بالمنذر - ان كان اتصل به - كان في أواخر ملكه ، اي قبيل السنة ٥٥٤ ، وهي السنة التي هلك فيها النعمان ، في معركة دارت بين جيشه وجيش الحرث بن جبلة الغساني قرب قنسرين (حزيران ٥٥٤) (٣)

---

(١) الأغاني : ٩ : ١٦٢ ؛ ابن قتيبة : ك : م : ٧٤

(٢) De perceval, Essai sur l'histoir des arabes ,11,P.613-616
الروائع : النابغة الذبياني : ٣

(٣) Ci. Hvart , Histoir des arabes. I, P. 60 وهي المعركة التي يدعوها العرب « بوم حليمة »، كما سيأتي .
الروائع : النابغة الذبياني : ٣٠

ويظهر أن شاعرنا لم يترك اللخميين بعد اندحارهم ، بل شهد ارتقاء عمرو بن هند العرش خليفةً لابيه، فهنأه بقصيدة ذكرت في ديوانه «١» . الا ان ابن هند لم يكترث له كثيراً ؛ بدليل اننا نرى فيه غير تلك القصيدة من شعر النابغة ، ولا يذكر الرواة شيئاً مهماً عن انقطاع الشاعر اليه .

وكذلك لا يكاد الرواة يذكرون شيئاً عن اتصال النابغة بقابوس (٥٧٠ – ٥٧٣ ؟) خليفة عمرو بن هند ، ولا بالمنذر الرابع (٥٧٣ – ٥٨٠ ؟) خليفة قابوس ، ووالد النعمان الثالث ابي قابوس ؛ الا ما ذكره ابن قتيبة من ان النابغة « كان مع النعمان بن المنذر ، ومع ابيه ، وجده ، وكانوا له مكرمين» (٢)

اهتمامه بقومه - الشاعر السياسي

ولعل من اسباب ذلك ان النعمان كان، في هذه الفترة ؛ مهتماً كل الاهتمام بسياسة قومه الداخلية ، وعلاقاتهم مع حلفائهم من جهة ، ومع اعدائهم من جهة اخرى . وهو لم يصرفه عن الاهتمام بهم شيء في حياته كلها ، فقد كانوا اذ ذاك اشد ما يكونون

(١) الديوان ، ص ٩٥

(٢) ابن قتيبة : ك.م ص ٧٤ — ٧٥

حاجة الى عنايته ونفوذه بسبب حرب السباق المضطرمة في بلادهم بينهم وبين العبسيين : وبسبب الغزوات التي كانوا لا يزالون يوالونها على حدود المناطق الغسانية .

اما حرب السباق ، او حرب داحس والغبراء التي بدأت ، على رأي دي برسفال ، حول السنة ٥٦٨ ؛ (١)

وكان هم النابغة فيها ان يحفظ لقومه الذبيانيين حلف بني اسد وبني تميم ؛ كي يقووا على مقاومة العبسيين واحلافهم من بني عامر ويظهر من الديوان ان الشاعر كان يميل خاصة الى الاحتفاظ ببني اسد الذين كان له عندهم يد بيضاء منذ يوم حليمة ، اذ اسر الحرث ابن جبلة الغساني كثيراً من الاسديين ؛ حلفاء المنذر ، فشفع النابغة فيهم لدى الحرث

ولكن هذا الحلف لم يكن ليروق العبسيين ولا العامريين ، فأخذوا يعملون على افساده بالتهديد تارة وبالتمليق اخرى . فكان النابغة يرد عليهم ويناضل ، يهجو الأعداء تارة ويمدح محالفيه اخرى ، متبسطاً في ذكر مفاخرهم الحربية وتعديد قواتهم . وان

---

(١) راجع الروائع ٢٥ في زهير بن ابي سلمى ، ص : ب وي ويا واطلب في ذكر تلك الحرب، l'histoire des arabes T. II, P. 494-536 de perceval. Essoir

من يطلع على الديوان (١) يرى صورة تامة لحياة القبائل الحربية اذ ذاك ، وتاريخاً امينا لمآتيهم ، مع ضبط عددهم واسمائهم ومعداتهم ، ودليلاً واضحاً على مقدرة النعمان السياسية واسلوبه المرن في ما خص المناظرات والمناقشات ، اسلوب لا نخطىء ان نعتناه بالصحافي .

وكما انه دافع عن احلافه في تلك الحرب الداخلية ، دافع عن قومه كذلك في غارتهم على ارض غسّان .

بعد يوم حليمة (سنة ٥٥٢) الذي قُتل فيه المنذر الثالث ، استحكم العداء بين الغسانيين والمناذرة مدة طويلة ، ولم تقع بينهم معركة تستحق الذكر الا وقعة عين أباغ في ٢٠ ايار ٥٧٠ ، انتصر فيها المنذر بن الحرث الغساني على قابوس . الا أن المناوشات كانت مستديمة بين الفريقين ، وكانت القبائل المجاورة للتخوم تغتنم هذه الفرصة فتعبث كل منها في ارض جاراتها ، ثم تلجأ الى ارض محالفيها من ارباب الدولتين . وكان في جيش الحيرة كتيبة من بني فزارة ، وهم فرع من ذبيان ، فكانوا يدفعون قومهم ، فيغيرون مع احلافهم من بني أسد على ارض غسان ويعودون

---

(١) ولا سيما قصائدة ٥ و١٢ و١٣ و١٨ و٢٥ في طبعة دير نبورغ ص : ٧٩ ، ٩٣ ، ٨٩ ، ٨٥ ،

احياناً غانمين حتى اذا ردهم عسكر الغسانيين واسر منهم ، لجأوا الى النابغة فشفع بهم على عادته. وقد حفظ لنا التاريخ ذكر بعض حوادث من هذه المناوشات منهـا ان حصن بن حذيفة الفزاري اغـــار في قومه وأسد على حدود غسان ، فاغضب الحرث فسير رجالاً أسروا عدداً من الاسديين والفزاريين . فكان على النابغة ان يشفع بهم ، فقال النعمان بن الحرث ،« وكان شديداً غليظاً»: « ان حصناً عظيم الذنب الينا والى الملك» فاجاب النابغة : « ابيت اللعن ان الذي بلغك باطل» ثم قال قصيدة يبرز فيها حصناً وقومه ويستعطف الملك .(١) ونعرف حادثة اخرى كان الهجوم فيها من قبل الغسانيين ، اذ اغار النعمان بن وائل بن جُـــلاح ، قائد الحرث ، على بني ذبيان فسبى منهم ، وكان بين السبايا عقرب بنت النابغة فلما عرفها قال: «والله ما أحد اكرم علينا من ابيك، وما انفع لنا عند الملك ! » ثم جهزها وخلاها . ويزيد الراوي : ثم قال : « والله ما ارى النابغة يرضى بهذا » فأطلق له سبي غطفان وأسراهم . فمدحه النابغة (٢) . وللنابغة قصيدة أيضاً يحـذّر فيها قومه من انتهاكهم حرمة ذي أُقر ،وهو وادٍ كان قد حماه النعمان

---

(١) الديوان من ٧٨ – وشعراء النصرانية ص ٥٥٢

(٢) الديوان ص ٩٦ – وشعراء النصرانية ص ٦٦٨

ابن الحرث الغساني (١) .

فينتج مما تقدم ان النابغة كان ذا صلة بالغسانيين وان صلته هذه سبقت الوحشة بينه وبين النعمان بن المنذر ، بل سبقت صلته بالنعمان المذكور ، وهو أمر قلما وقف عنده مؤرخو الأدب .على انه ناتج مما تقدم ، يعززه ايضاً قول النابغة نفسه في احدى اعتذارياته للنعمان ابي قابوس :

ملوك واخوان، اذا ما اتيتهم احكم في اموالهم وأقرب (٢)

يريد بهم الغسانيين الذين كانوا يكرمون وفادته فيطلقون أسرى قومه ، كما ذكرنا ، ويبالغون في اكرامه من قبل أن ينقطع اليهم .

في بلاط النعمان

نحو السنة ٥٨١ ، رقي النعمان الثالث ابو قابوس ، ابن المنذر الرابع ، عرش الحيرة ، وكان سيداً حازماً جباراً يحب ان يظهر بمظهر الملك العظيم ، ويرمي خصوصاً الى التغلب على الغسانيين — الذين كانوا قد كسروا اللخميين مرتين في موقعتين شهيرتين (يوم حليمة سنة ٥٥٤ ، ويوم عين اباغ سنة ٥٧٠ واحرقوا الحيرة سنة

(١) الديوان ص ٨٤ — وشعراء النصرانية ص ٦٧٨

(٢) اطلب المنتخبات ، ص ١٣

٥٨٠ – ومنافستهم في كل شيء ، حتى في مظاهر اللهو والترف . فاغدق العطايا على الشعراء حتى استقدمهم من جميع اطراف الجزيرة العربية ، فكانوا يمدحونه ويقيمون في بلاطه ما شاؤوا ، ثم يعودون بعطاياه متفننين بمدائحه في اسفارهم الطويلة .

ولم يكن النابغة ، الذي حفظ ذكراً جميلاً لعطايا اسلاف النعمان ، ليضيع هذه الفرصة ، فترك جوار الغسانيين ، وكان عليهم اذ ذاك الحرث السادس الاصغر ، وقدم الحيرة . فاستقبله النعمان بكل ما يليق بهذا الشاعر العظيم ، والسياسي المحنك ، الذي قد يرجح كفة المناذرة على الغساسنة اذا رغب . وقد انقطع اليه الشاعر كل الانقطاع حتى أن الروايات ، التي نراها قليلة ضئيلة في ما خصّ مآتي النابغة قبل هذا العهد ، تكثر وتتزايد ، بعد اتصاله بالنعمان ، كأن لم يمدح النابغه غيره من الملوك ، وحتى ان تاريخ الادب لا يذكر اسم النابغة الا اردفه باسم النعمان فقرن اسميهما ، كما قرن بعدهما اسمي المتنبي وسيف الدولة .

على اننا ، وان يكن النابغة رافق النعمان في جميع مآتيه ، ونادمه في اكثر مجالسه ، وان يكن النعمان اغدق عليه العطايا من مئات النوق « الأدم الفتل المراق المشدودة برجال الحيرة

الجدد (١) ، والجواري « الساحبات ذيول الريط » (٢) والمال الكثير حتى انه « كان يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب لا يستعمل غير ذلك » (٣) ، فلا نرى للشاعر في هذا الملك الجواد الا القليل من القصائد طول هذه المدة ، منها الدالية التي وصف فيها المتجردة (٤) والتي نخال بعض ابياتها منحولة .

الدس على النابغة

كان النابغة شاعر النعمان الخاص ، ولم يكن لأحد حظ من الملك سواه (٥) حتى ان مركزه اوغر صدور منافسيه حسداً فاخذوا يعملون على الافساد بينه وبين الملك ، وكان اشدهم خبثاً واجرأهم على الدس عبد القيس بن خفاف التميمي ومرة بن سعد ابن قريع السعدي ، فنظما على لسان النابغة هجاءً سفيهاً في النعمان يذكران في بعضه جده لامه ، وكان صائغاً بفدك (٦) . اما عبد القيس فلا نعلم سبب بغضه للشاعر ، واما مرة فقد ذكر الأغاني انه

(١) المنتخبات في الروائع ص ٨ ، البيت ٣١
(٢) المنتخبات في الروائع ص ٧ ، البيت ٢٩
(٣) الأغاني ٩ : ١٧٢
(٤) الديوان ص ٧٨ – وشعراء النصرانية ، ٦٤
(٥) الأغاني ٩ : ١٧٢
(٦) اطلب الأغاني ٩ : ١٦٥ – ١٦٦ ؛ وابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ص ٧٦ .

كان « له سيف قاطع يقال له « ذو الزيقة » من كثرة فرنـــده وجوهره فذكره النابغة للنعمان فأخذه . فاضطعن ذلك القريصى حتى وشى به»(١). ولكن الظاهر ان هذه التجربة لم تنجح ؛فاخذ الوشاة يتسقطون غيرها . الى ان كانت « مسألة المتجردة » ،وهي الرواية الثالثة التي يكتفي بها البعض سبباً لابعاد النابغة ،وملخصها ان النعمان كان قد تزوج بامرأة ابيه المتجردة ، وكانت من اجمل نساء العرب في عصرها ، وهو من اشنع الرجال ، أبرش ، دميماً قبيح المنظر (٢) فكان شديد الغيرة عليها . وحدث ان النابغة رآها فجأة ، فسقط حجابها ، فاستترت بيدها (٣) فقال فيها قصيدة منها اشارة الى الحادثة :

سقط النصيف ،ولم ترد اسقاطه فتناولته ، واتقتنا باليـــد

وهي طويلة فيها وصف شهواني يتجاوز حدود الادب. فبلغت النعمان عن طريق مرة القريصي على قـول بعض الرواة ؛ او عن طريق المنخل اليشكري الشاعر ، على قول غيرهم ، وكان هـذا ينادم النعمان ، ولا يخـــلو من ميل الى المتجردة ، فحسد النابغة

---

(١) الأغاني ٩ : ١٦٦
(٢) الأغاني ٩ : ١٦٦
(٣) الأغاني ٩ : ١٦٤

واغرى به الملك (١) ولكن يجرح هذه الرواية ما يذكره الأغاني ، بعيد هذا القول ، من ان المنخل اليشكري قتله عمرو بن هند ؛ (٢) ولا يخفى ان بين وفاة عمرو بن هند وارتقاء النعمان عرش الحيرة نحو عشر سنين . على ان النابغة يشير في اعتذارياته الى من دبر عليه هذه الوشايات من الاقارع عامةً (٣) ، وخاصةً الى واشٍ معين ذي ذنب ، كان لا يزال يرتع في حمى النعمان بعد ان اقصي النابغة البريء المظلوم فيقول :

لكلفتني ذنبَ امرىءٍ ، وتركته
كذي العرِ يكوي غيره ، وهو راتع (٤)

واذا اضفنا هذا الى ما نعرفه من المنافسة الشديدة بين المناذرة والغساسنة ، والى ما كان يعرفه النعمان من مدائح النابغة لاعدائه واعداء آبائه من قبله – وهو ظاهر ايضاً في الاعتذاريات ، كما قدمنا – فهمنا حق النعمان المشروع في ان يغضب على شاعره ويوعده وعيداً حمل حاجبه عصام بن شهبر الجرمي وكان صديقاً

---

(١) ابن قتيبة : ك م من ٧٦ – ٧٧ ؛ والبغدادي : ك ٠ م ١٠ : ٢٨٧ ؛ وابو زيد القرشي : ك م ص ٦١ – ٦٢ ؛ والاغاني ٩ : ١٦٦

(٢) الاغاني ٩ : ١٦٦

(٣) اطلب المنتخبات في الروائع ص ١٣ و ١٨ الابيات ٥٤ و ٧٨

(٤) المنتخبات ص ٢٠ البيت ٨٧ قلنا : ولعله المنخل !

للنابغة ، على ان ينذره (١) فهرب هذا تاركاً كل ما يملك . وبعد ان اقام مدة في قومه ، شخص الى ملوك غسان : وكان ذلك بعد السنة ٥٨٧ ، بدليل ان الملك الغسّاني الذي وفد عليه كان عمراً الرابع ، ابن الحرث السادس الاصفر ، وقد ملك بعد ابيه سنة ٥٨٧ ، فيكون النابغة اقام في بلاط النعمان سبع سنوات على الاقل .

عند الغساسنة

كان اول اتصال النابغة بعمرو بن الحرث ، كما تقدم لا بأخيه النعمان . فمدحه بقصائد عديدة فخمة منها البائية الشهيرة التي مطلعها

كليني لهم يا أُميمة ، ناصبِ وليلٍ اقاسيه بطيء الكواكب

واقام مدة في بني غسان ينتقل مع امرائهم في حواضرهم المهمة كجلق والجولان ، فيحضر حفلاتهم الدينية منها والمدنية ويطلع على سياساتهم ، ويهتم بأخبار حروبهم ، ثم يصف كل ذلك في شعره مضيفاً اليه ذكر مفاخرهم القديمة مغتنماً الفرص ليشير الى انتصاراتهم على المناذرة اعدائهم ، كما تقدم في يوم حليمة المشهور (٢) :

وبعد ان توفي عمرو ، نحو السنة ٥٩٧ ، اتصل النابغة بخليفته النعمان السادس ابي كرب وابي حُجر وكان هذا بطلاً مغواراً شديد الميل الى الغزوات ، لا يطيق ان يعيش أحد من قبائل البدو

(١) الاغاني ٩ : ١٦٥

(٢) اطلب المنتخبات ، القسم الثاني

في ارضه .

وكان بنو ذبيان واحلافهم من بني اسد وبني حُن كثيراً ما يرعون فيها من المواشي . فيهمّ النعمان بمعاقبتهم ، فيضطر النابغة الى التوسط والشفاعة . وقد كان موقفه في غاية الخطوره ، الا انه كان يتخلص باسلوب حسن وسياسة ناجحة ، فكان تارة يمدح الملك ويستعطفه وطوراً يهدد قومه بان «الليث منقبض على براثنه» (١) وحيناً ينذر الملك نفسه بان « لقاء بني حُن كريه » (٢) حتى اذ انتصر الملك واسر من قوم الشاعر ، اتى دور الشفاعات . على أن النعمان لم يطل ملكه ، فقتل في احدى غزواته سنة ٦٠٠ ، فرثاه النابغة بقصيدة شهيرة نشرها في المنتخبات الاستاذ فؤاد افرام البستاني (ص ٢٨) ويظهر انه لم يحظ عند خليفته ، حجر الثاني . وكانه رأى أملاً برضى النعمان بن المنذر عنه ، وسواء كان ذلك بان أرسل هذا يدعوه ويؤمنه كما تقول بعض الروايات (٣) ؛ او ان يكون النابغة عرف بمرض ملك الحيرة ، وكان يحبه ، فأسرع اليه مشفقاً ، (٤) او ان يكون تاق الى مواهبه الجزيلة فرغب في عطاياه وعصافيره ،

---

(١) الديوان ص ٨٤ ؛ وشعراء النصرانية ص ٦٧٨

(٢) الديوان ص ٨٨ ؛ وشعراء النصرانية ص ٦٨٢

(٣) ابن قتيبة : ك.م. ٧٧

(٤) الأغاني ٩ : ١٧٢

لانه لم يكن ليخافه ولم تكن عشيرته لتسلمه، كما يقول ابو عبيدة (١) فترك الغسانيين في تلك السنة نفسها واتجه نحو الحيرة ، مع صديقين من بني فزارة كانا من ندماء النعمان وهما منظور بن زبان وسيار بن عمرو ، على الأشهر (٢)

الرجوع الى النعمان بن المنذر

ولم يجرؤ النابغة ان يدخل رأساً على النعمان ، لأنه لم يكن أمن وعيده بعد و « لا قرار على زأرٍ من الاسدِ » (٣) وهو لا يريد أن يأتيه مجرماً (٤) فاخذ يبرّر نفسه ، ويعتذر اليه بتلك الاعتذاريات الرائعة التي صدر بها المنتخبات البستاني ، وكان بين الفزاريين والنعمان دُخْلُلٌ ، كما يقول ابن قتيبة (٥) اي حب وخاصة، فضرب لهما قبة من أدم، وهو لا يشعر ان النابغة معهما ، وكان يرسل اليهما بطيب وألطاف مع احدى قيانه، فكانا يأمرانها ان تبدأ بالنابغة قبلهما ، فذكرت ذلك للنعمان (٦) . ثم ان النابغة

(١) الأغاني ٩ : الموضع نفسه
(٢) ابن قتيبة : ك.م ص.٧٠
(٣) المنتخبات ص ١٠ البيت ٤٢
(٤) الديوان ص ٨٢ ، ٧ : ١١
(٥) ابن قتيبة : ك.م ٧٧ ـ ٧٨
(٦) الأغاني ٩ : ١٧٢

علمها ابياتاً من داليته « يا دار مية » تنشدها مولاها على شراب ، فلما انشدته ، وقد اخذت الخمر منه ، طرب وصاح : « هذا شعر علوي ! هذا شعر النابغة ! » ثم كلمه فيه الفزاريان ، فأمنه ، وادناه اليه ، واستنشده ، ووصله . وكان حسان بن ثابت ، بعد ان صادف النابغة في بلاط الغسانيين وعرف انه ترك الحيرة هارباً ، اتى النعمان ، مغتنماً تلك الفرصة ، فاصبح من شعرائه المقربين . الا ان الحاجب ، عصام بن شهير ، صديق النابغة ، كان قد نبهه الى أنه « اذا قدم عليه النابغة فليس لأحد منه حظ سواه » (١) فلما رأى حسان رضى النعمان عن النابغة ، شعر بانتهاء حظوته ، فحسد الشاعر على ثلاث ، كما يقول (٢) لا يدري على ايتهن كان له اشد حسداً : على ان ادناه النعمان له بعد المباعدة ومسامرته له واصغائه اليه ، ام على جودة شعره ، ام على مائة بعير من عصافيره امر له بها ؟ » .

كان من الحق ان يتبرّر النابغة في شيخوخته فتمحى عنه تلك الوصمة التي الحقها به الوشاة ، فقضت مضجعه ، واقلقت لياليه حتى ظهرت آثار التأثر بها في جميع اعتذارياته . ولكن الحظ لم يشأ ان تطول اقامته في الحيرة هذه المرة . فان كسرى لم يلبث ان نقم

---

(١) الأغاني ٩ : ١٧٢

(٢) الأغاني : الموضع نفسه

على عميله النعمان ، وسير جيشاً في طلبه . فهرب هذا من عاصمته ، وتبدد شمل رجاله . ولم يطل الوقت حتى القى الفرس القبض على النعمان ، فاقتيد الى المدائن حيث قتل تحت أرجل الفيلة ، حسب الرواية المشهورة ، نحو السنة ٦٠٢ .

وفاتـــه

اما النابغة فانه لحق بقومه ، ولا نعلم عنه شيئاً يذكر بعد ذلك الا انه عاش حتى بعد موت النعمان بدليل ما ذكر صاحب الأغاني من انه لما نعي اليه النعمان وحدث بمـــا صنع به كسرى قال : « طلبه من الدهر طالب الملوك ! » ثم تمثل ببعض أبيـــات (١) وذكر غير واحد من الرواة انه اسن جداً وترك قول الشعر (٢) واستنتج ديرنبورغ من جملة وردت في الاغاني (٣) ، ان شاعرنا خرف في آخر ايامه ، وهام في بلاد اليمن حتى مات .

صفاته واخلاقه ـ دينه

يستنتج من اقوال الرواة المتفرقة ان النابغة كان حسن الهيئة ، مهيب المنظر ، يترك له ضفيرتين (٤) تتدليان على كتفيه . وكان

(١) الأغاني ٢ : ٣٩
(٢) ابو زيد القرشي : الجمهرة ص ٦٣
(٣) الاغاني ٢ : ٩١
(٤) الاغاني ١٤ : ٢

ذا عفة وشرف وانفة طالما حسد عليها ، حتى انه كان يترفع عن مدح السوقة (١) ، ولكنه لم يكن ليتراجع عن تأديب هؤلاء السوقة والنيل منهم ، اذا ما تهجموا عليه وهجوه . اما معيشته فكانت على جانب من الترف والبذخ ، كما تقدم في ذكر عطايا النعمان له . وكان الى ذلك ، ، رزيناً ذا بصر بالامور ، جمع الاختبار والحنكة الى دقة الملاحظة والحكمة ، فنال مركزاً سامياً في قلوب قومه ، ودالة عظيمة على ممدوحيه من الغسانيين واللخميين . وقد رأينا البراهين العديدة على ذلك في تدخلاته بشؤون الصلح والحرب وما اليهما من المحالفات والاتفاقات ، وفي توسطه بحاجات قبيلته لدى الملوك ، فكان حقاً رجل ادارة يستخدم موهبته الشعرية في سبيل غايته السياسية . الا ان السياسة مشؤومة الطالع كثيراً ما تشوه المقاصد النبيله . وتفسد النيات الصافية . وعليه فلا نعجب ان سمعنا البعض من قوم النابغة يتذمرون عليه ، اذ ينصح لهم بتجنب محاربة الغسانيين ، فينسبونه الى المهالاة والمحاباة ويعيرونه خوفه النعمان بن الحرث (٢) ، حتى اذا كسروا وخسروا الانعام والاسرى ، لجأوا اليه في سبيل الشفاعة . وكان هو يذكر هذا الاجحاف بحقه ويشكو حتى من

---

(١) الديوان ص ٩٧ ، القصيدة ٢٧ : ١٦

(٢) شعراء النصرانية ص ٦٧٨

اقرب الناس اليه .

وكما كان يلجأ الناس اليه في مشاكلهم الاجتماعية والسياسية ، كانوا يحكمونه في مشاكلهم الادبية كذلك . والرواة مجمعون على انه كان يرأس محفل عُكاظ ، لما خص بـه من حسن الذوق ودقة النظر وصواب الحكم ، فتضرب له قبة من أدم (١) وينشده الشعراء ، فيفاضل بينهم ويحكم ، فينزلون جميعاً عند حكمه في الغالب ، الا بعض من لم يكن يروقهم الحكم بالطبع ، كحسان بن ثابت مثلاً الذي رأيناه يحتل مكان النابغة في الحيرة ، ثم يحسده بعد رضى النعمان عنه . ولكن النابغة لم يكن ليسكت عن مثل هذا الاحتجاج (٢) .

اما دين شاعرنا فمن المرجح انه كان النصرانية لكثرة ما نراه في شعره من الشواهد الدالة لا على توحيده فحسب ، كما ذكر ديرنبورغ واكتفى به ، بل على نصرانيته ايضاً ، كما ذكر « تاج العروس » (٣) فقال في شرح البيت :

---

(١) Derenbourgop. cit. p 67 الروائع : النابغة الذبياني : ٣٠

(٢) ابن قتيبة : ك.م ١٩٧ ، وكل كتب الادب

(٣) راجع ما قاله فؤاد افرام البستاني عن مسألة الخنساء وحسان لدى النابغة في سوق عكاظ . في الروائع ٢٨ : يه — يو ، كسب — كج

ظلت اقاطيع انعامٍ موئلةٍ
لدى صليبٍ على الزوراء منصوبٍ (١)

« ... وقيل : سمي النابغة العلم صليباً لانه كان نصرانياً » (٢)

آثاره

الديوان

كان اول من جمع شعر النابغة ابو سعيد عبد الملك قريب المعروف بالاصمعي ، فاختار له ٢٤ قصيدة ، زاد عليها الطوسي « منتصف القرن التاسع » بضع قصائد . وكلها موجودة في مجموعة دواوين الشعراء الستة الجاهليين التي نشرها المستشرق وليم بن الورد في غريفزولد – لندن سنة ١٨٧٠ ، والحق بشعر النابغة فيها كل ما وقف عليه في كتب الأدب ، وهو نحو ٦٠ قطعة منها ما لا يتجاوز البيت الواحد ، واكثرها بين النحل ، لا سيما ذاك الثناء المسجَّع في مدح عمرو بن الحرث (٣) . وفي سنة ١٨٦٨ اخذ المستشرق ديرنبورغ يهتم بنسخ الديوان المشروحة ، فنشره اولاً

---

(١) الديوان ص ٧٩ : القصيدة ٤ : ١٠

(٢) تاج العروس : ١ : ٣٣٧

(٣) طبعة ابن الورد ص ١٧٧ ؛ وشعراء النصرانية ص ٧٣١

في المجلة الاسيوية الفرنسية ، ثم على حدة مع شرح الا علم الشنتمري وترجمة كاملة الى الفرنسوية ، بعد أن قدّم عليه مقدمة واسعة في حياة الشاعر وصفاته . والحق به القصيدة التي لم تذكر في الديوان ، ولكن اوردها ابو زيد القرشي في « جمهرته » وجعلها الثالثة بين المعلقات ، ومطلعها :

عوجوا فحيوا النعم دمنة الدار ماذا تحيون من نؤي واحجار (١)

اما التبريزي فانه يجعل بين المعلقات العشر القصيدة الدالية في الاعتـــذار .

ومن شرحوا ديوان النابغة الوزير ابو بكر البطليوسي . وقد نشر المرحوم الاب شيخو ، في مجموعته الكبيرة «شعراء النصرانية» سنة ١٨٩٠ ، اخبار النابغة مع ديوانه وشروحه وكل ما أضيف اليه وكان امين عمر زيتون قد نشر في القاهرة سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦) الديوان المذكور وعليه شرح مختصر عن شرح البطليوسي ، مع اربعة دواوين لعروة بن الورد ، والفرزدق ، وحاتم الطائي ، وعلقمة الفحل بعنوان « خمسة دواوين العرب » . وهي المجموعة التي نشرتها قبل الحرب » المكتبة الاهلية في بيروت ، ثم اعادت طبع ديوان النابغة منها على حدة سنة ١٩٢٩ ، بعد ان وقف عليه الشيخ

---

(١) ابو زيد القرشي : جمهرة اشعار العرب ، ص ١١٤

عبد الرحمن سلام . وقال استاذنا البستاني في (الروائع) :

(اما من حيث صحة النسبة فنقول في الديوان ما قلناه في اكثر الشعر الجاهلي من اننا لا نطمع في سلامته كله من التحريف او الدس او النحل فحيثما رأينا ضعفاً أشرنا اليه . وحيثما رأينا الصحة راجحة ارتحنا اليها . حتى انه يمكننا الاطمئنان ، والحالة هذه ، الى اكثر ما ورد عن الاصمعي ، وهو ما اجتهدنا في تمثيله في المنتخبات مستندين الى طبعات ديرنبورغ وابن الورد وشيخو ، والى شروح الشنتمري والبطليوسي) .

الوصف في شعره

نصوص مختارة

وصف الاطلال :

قال النابغة يصف الاطلال في مطلع معلقته :

يا دار ميَّة بالعليـــاء فالسَّنَـدِ
أقوتْ وطالَ عليها سالِفُ الأَمَدِ (١)
وقفت فيهـا أصيلا لا أُسائلهـــا
عيت جواباً ، وما بالرَّبْعِ من أَحَدِ (٢)

(١) مية : اسم محبوبته العليا : مكان مرتفع من الارض . السند : مـــا قابلك من الوادي . أقوت : اقفرت من اهلها . سالف الأمد : ماضي الدهر.

(٢) اصيلالا : الاصيل الوقت قبيل المغرب ، واصيلالا البدل ، اذ تصغيره على اصيلان ، فابدل بالنون اللام ، واصيلان اصلها أصلان الذي هو جمع اصيل كرغيف ورغفان ، وخطئوا من قال بهذا ؛ لأن الجمع لا يصغر الا اذا كانت من جموع القلة ، وهي :

أفعلة أفعل ثم فعـله ثمت أفعال جموع قله

وقالوا بل هو مصدر مثل التكلان والغفران . عيب : عجزت .

إلا أواريّ لأيا ما أبيّنُها
والنؤى كالحوْضِ بالمظلومةِ الجلدِ (١)
ردّت عليه اقاصيه ولبـــده
ضربُ الوليدة بالمسحاةِ في الثأدِ (٢)
خَلتْ سبيل اتيّ كان يحبسه
ورفعته الى السجفين فالنضدِ (٣)
اضحت خلاءً ، واضحى اهلها احتملوا
اخنى عليها الذي اخنى على لُبدِ (٤)

---

(١) الأواري : مفردها آرى . وهو معلف الدابة ومحبسها . لأيا : جهداً ومشقة . أبينها : استبينها . النؤى : الحاجز من التراب يجعل حول البيت والخيمة ليمنع وصول السيل . الظلم : وضع الشيء في غير محله ، والمظلومة : الارض التي قد حفر فيها في غير موضع الحفر . الجلد : الارض الغليظه الصلبة من غير حجارة .
(٢) أقاصيه : جمع اقصى ، وهو ما بعده وضده أدنى
لبده : الصق التراب بعضه ببعض . الوليدة : الخادم الشابة . الثأد : المكان الندى التراب .
(٣) خلت : تركت . الاتي : السبيل يأتي من بلد الى بلد . يحبسه : يمنعه . السجفين : متنى سجف ، وهو الستر يكون في مقدم البيت . النضد : ما نضد ونسق من متاع البيت .
(٤) أمست : يريد صارت . خلاء : خالية من السكان . احتملوا : ارتحلوا . اخنى عليها : غيرها وافسد آياتها . لبد : آخر نسور لقمان بن عاده

وصف الثور الوحشي :

وقال يصف الثور الوحشي :

كأن رَحلي وقد زال النهارُ بنا
يوم الجليل على مستأنسٍ وَجدِ (١)
من وحشِ وجرة موشٍ أكارعُه
طاوى المصير كسيف الصّيقل الفرد (٢)
سرَت عليه من الجوزاءِ سارية
تزجى الشمال عليه جامد البَردِ (٣)
فارتاعَ من صوتِ كلاب فباتَ له
طوع الشوامِت من خوفٍ ومن صَردِ (٤)

وهو غير لقمان الحكيم الوارد في القرآن الكريم . سماه لبداً لانه ظن انه ابد فلا يموت ، ولا يذهب ،وزعموا انه حين كبر ، قال له: انهض لبد فانت نسر الابد .

(١) الرحل : ما يوضع على ظهر البعير ، فيشبه السرج للفرج . زال النهار ؟ حل وقت الزوال ، وهو الوقت الذي تتوسط الشمس فيه السماء . يوم الجليل : بذلك المكان الذي ينبت الجليل وهو الشمام . المستأنس : الذي ينظر بعينه كأنه يطلب الأنيس . وجد : منفرد .

(٢) وجرة : فلاة بين مكة والبصرة ، وهي قليلة الماء لذلك لا يسكنها أحد . موشى : منقط . اكارعه : قوائمه ، مفردها كراع ، كغراب . طاوي المصير : ضامر المصير . : الفرد الفريد الذي لا نظير له (٣) سرت

فبتهن عليه واستمرّ به
صُمعُ الكعوبِ بريات من الحَرَدِ (١)

وكان «ضمرانُ» منه حيث يوزعه
طعنَ المعارك عند المحجر النجدِ (٢)

شك الفريصةَ بالمدرى فانفذها
شكَ المبيطرِ إذ يشفي من العضدِ (٣)

السارية : سارت السحابة ليلا . الجوزاء : نجم يظهر صيفاً . تزجى : توق برفق . الشمال : الريح تهب من جهة الشمال . جامد البرد : الماء المجمد قطعاً صغاراً لشدة البرد . (٤) فارتاع : ففزع . كلاب : صاحب كلاب . طوع الشوامت : مطيع القوائم . الشوامت جمع شامتة . الصرد : البرد الشديد

(١) فبتهن : ففرقهن . صمع الكعوب : ضوامر ، ومفرد صمع أصمع وهو وصف للقوائم الملس . بريات من الحرد ؟ بريهات من الحرد ، وهو ترهل في المفاصل .

(٢) ضمران : اسم كلب . يوزعه : يضربه ويحفه . المحجر : الملجأ . النجد : الشجاع من النجدة ، او الذي يعرق من الكرب والشدة ، والأول هو الراد .

(٣) شك الفريصة : طعنها وانفذ فيها قرنه . والفريصة : قطعة لحم من مرجع الكتف الى الخاصرة . المدري : القرن . المبيطر : البيطار . العضد : بالفتح داء يصيب العضد .

كأنه خارجـــاً من جنب صفحته
سَفودُ شربٍ نسوه عند مُفتأدِ (١)
فظل يعجم أعـلى الروق منقبضاً
في حالك اللونِ صدقٍ غير ذي اودِ (٢)
لما رأى « واشق » اقعـــاص صاحبه
ولا سبيل الى عقل ولا مودِ (٣)
قالت له النفسُ : اني لا ارى طمعاً
وان مولاك لم يَسْلَمْ ولم يصدِ (٤)

---

(١) كأنه : الضمير يعود على القرن . صفحته . ، جانبه . سفود شرب ، السفود حديده يشوي عليها اللحم ، والشرب جماعة الشاربين . نسوه ، تركوه ومنه قوله تعالى ، « نسوا الله فنسيهم » أي تركوه فتركهم . المفتأد ، موضع النار التي فيها الشواء .

(٢) فظل : فاستمر اليوم كله وليس مرادا وانما المراد فاستمر . يعجم : يمضغ . الروق : القرن . منقبضاً : منطوياً . متجمعاً . الصدق : بالفتح الصلب . الاود ، الاعوجاج .

(٣) واشق . اسم كلب آخر ، وسمي بذلك لانه يشق اللمم . اقعـاص من صاحبه . الاقعاص القتل السريع الذي نزل بصاحبه صخران . لاسبيل . لا طريق ولا رجاء . الى عقل . الى دية ، ولا وقود ، ولا قصاص .

(٤) قالت له النفس . ناجته نفسه وحدثته . وله الضمير يعود على واشق . الطمع . الرجاء والامل . مولاك . سيدك . لم يسلم . لم يسلم من الخسارة

وصف الليل

وقال يصف الليل

كِلِيني لِهَـــمٍ يا أُمَيمةُ ناصبِ
وليلٍ أقاسيهِ بطيءِ الكواكبِ (١)

تطاولَ حتى قلت : ليس بمنقض
وليس الذي يرعى النُجومَ بآئبِ (٢)

وصدرٍ أرَاح الليلُ عازب همِّـــه
تضاعفَ فيه الحُزْنُ من كل جانبِ (٣)

---

(١) كليني ، اتركيني ودعيني . أميمة ، إبنته ، يصح فيها الفتح والضم ، والضم احسن ، والفتح أشهر . قال الخليل بن احمد : من عادة العرب أن ترخم عندما تنادي المؤنث فلما لم يرخم « بسبب الوزن » أجرى الترخيم على لفظها ، فأتى بالفتح . ناصب : متعب منصب ، كقوله تعالى ، « في عيشة راضية » أي عيشة مرضية ، أولهم ذي نصب ، اقاسيه ، أكابده . بطيء الكواكب : كناية عن صفة هي الطول والامتداد .

(٢) تطاول : امتد وطال . ليس بمنقض : ليس بمنته . يرعى النجوم : قيل اراد النجم الذي يتقدم النجوم ، فهو منها بمنزلة الراعي لها . بآئب ، براجع .

(٣) وصدر : ورب صدر ، يقصد صدر نفسه . أراح : اعاد ورد من راحت الابل الى مناخها عشياً اذا ارتدت . العازب : النائي البعيد . تضاعف ، تكاثر . من كل جنب : من جميع النواحي .

وصف الفرات :

ثم وصف الفرات فقال :

فما الفرات اذا هبَّ الرِّياحُ له ترمي اواذيه العبرَين بالزَّبَدِ (١)
يمُده كلُّ وادٍ مترعٍ لجبٍ فيه ركامٌ من الينبوتِ والخضدِ (٢)
يظلُّ من خوفه الملاحُ معتصماً بالخيزرانة بعد الأينِ والنجدِ (٣)
يوماً بأجودَ منه سَيْبَ نافلةٍ
ولا يحولُ عَطاءُ اليومِ دون غدِ (٤)

وصف الحية :

وقال في وصف الحية :

---

(١) الأواذي : الأمواج والمفرد آذى . العبران : الشاطئان . الزبد : رغاوي الماء .

(٢) يمده : يزيد في مائه . المترع : الممتلىء . اللجب : ذي الصوت . الركام : الحطام المتكاثف المتراكم . الينبوت : شجر الخشخاش واحدته ينبوته . الخضد : ما خضد وتكسر .

(٣) يظل : يستمر طول يومه . الملاح : صاحب السفينة . معتصما : ممتنعاً الخيزرانة : السكان ، وهو دفة السفينة ويروى الخيسفوجة ، وهو الشراع . الأين : التعب والأعياء . النجد : العرق والكرب .

(٤) بأجود منه : باكثر منه عطاء . السيب : العطاء . النافلة : الزيادة . لا يحول : لا يمنع .

صِلٌّ صَفاً لا تنطوي من القِصَر
طويلة الاطراق من غير خَفَرْ (١)

داهيـةٌ قد صغرَتْ من الكِبَرْ
كأنما قدْ ذهبتْ بها الفِكَرْ (٢)

مَهْرُوته الشِّدْقينِ حَولاءُ النظرْ
تفترُّ عن عُوجٍ جَدادٍ كالابَرْ (٣)

وصف أثر سم الحية وخبثها :

ثم قال في وصف أثر سم الحية وخبثها :

فبتُّ كأني ساورتني ضئيـلةٌ
من الرقشِ في انيابها السُّمُّ ناقعُ (٤)

---

(١) الصل : الحية الخبيثة جداً . الصفـاء : الحجر الصلد مفرده صفاة . الاطراق : ارخاء العينين الى الأرض . الخفر : الحياء .

(٢) داهية : مصيبة . ذهبت بها الفكر ، كناية عن صفة هي السقم .

(٣) مهروته الشدقين : واسعة الشدقين . تفتر : تكشف . جداد : الجداد بالفتح والكسر : صرام النخل.

(٤) ساورتني : واثبتني ، او وثبت علي . ضئيلة : رقيقة الجسم .الرقش : جمع رقشاء ، وهي الحية فيها نقط سود وبيض . الناقع ، البالغ القاتل .

يُسَهَّدُ مِنْ لَيْلِ التمامِ سَلِيمُها
لحلى النساءِ في يديهِ قعاقِعُ (١)
تناذرها الراقون من سُوءِ سُمّها
تطلقه طوراً وطوراً تراجـــعُ

(١) يسهد : يمنع من النوم . ليل التمام : اطول ليالي الشتاء ، والتمام مثلث التاء والفتح اكثرها . السليم ، الملسوع ،وسمي كذلك تفاؤلا بسلامته . القعاقع : الأصوات مفردها قعقعة .

تحليل النصوص

وصف شاعرنا الاطـــلال وناجى الديار ، وود لو تشاطره المناجاة ، تلك الديار الواقعة بين العلياء فالسند ، وقد اقفرت من اهلها ، وطال اقفارها ، وبعد العهد بسكانها ، فقال : لقد وقفت في رسوم هذه الأطلال ساعة الاصيل ، وقـد تزاحمت في نفسي الذكريات ، وتجاوبت العواطف والافـكار ، وقفت اسائلهـا عن الاحباب الذين كانوا يقطنونها ، والاصدقـــاء الذين تساقينا وإياهم كؤوس الهوى ، فلم تحر جواباً فَعَجِزَت عن التعبير ، وكيف تعبر وقد خلت من الانيس ؟

لم يبق في رسـوم هـذه الديار لا محابس الدواب ومعالف الحيوان ، وحتى هذه لا يكاد الرائي يتبينها والا النؤى الذي كانوا يقيمونة مانعاً للسيل ، فهو كالحوض في الارض الصلبة الصماء ، لبد ترابه ، حتى يستقر بعضه على بعض .

خلت الخادم السبيل للسيل المنهمر ، والأتي المنسكب الذي كان ذلك النؤى يحبسه عن الدار ، وبلغ سجفا البيت ، بـــل تجاوزهما الى متاعه المنضد ، واساسه المنسق ، فليس ما يدعو الى

حجز الماء عنها ، فقد اضحت خاليـــة من قاطنيها الذين احتملوا عنها ورحلوا منها ؛ فغيرها ، وأذهب آياتها ، القادر على تغيير كل شيء وإزالة كلّ حيّ . « اخنى عليها الذي اخنى على لبد » .

وقال فى وصفه للثور الوحشي : كأني اذ أضع رحلي ساعة الزوال ، فوق ظهر ثور وحشي غير محـــدود النشاط ، في ذلك المكان الموحش الذي لا انيس لي فيه يزيل وحشتي ، ويؤنس وحدتي . انه من وحش وجرة القليلة الماء ، المعدومة الغذاء ، وهو ضامر كالسيف المصقول ، ليس له في صقله نظير ، وهـــو الى توجسه وخوفه . وظمئه وجوعه قد أسرت اليه في ليلة خريرة النجم مزنة شمالية لا تمل البكاء ، ولا تترك النحيب ، فهي تحمل اليـــه البرد والبرد ، وتسوق له معها الخوف والحذر والجوع والظمأ .

انه مضطرب الحس ، هلع النفس ، قد ضاعف ما هو فيه انه سمع صوت صياد جاء يغزوه في عقر داره ، ويطارده في فلاتـه بقوانصه ، ولكنه قدر ان الله منحـــه اكارع ملساء ، وقوائم جرداء قد برئت من العيب ، وسلمت من الحرد ، فهي كفيلة بان تدفع عنه هذه الكلاب المطاردة .

اقبل عليه زعيمها كما أراد منه سيده ، فاذا انصباب واندفاع

وقفز ووثب ، ومداورة ومراودة ، ومخادعة ومخاتلة ، ثم معركة حامية الوطيس طعن فيها الثور ضمران في شجاعة ونجد طعنه أنفذ بها قرنه في بطنه ، فكان كأنه بيطار يشق عن داء ليغسله بالدواء ، وظهر القرن من الجنب الآخر مضرجاً بدم الكلب ، كأنه سفود تركه فوق النار جماعة الشاربين ، فاحمر واشتعل ، فصار كأنه عمود من النار ، وأخذ الكلب في ثورة ويأس يعض اعلى القرن الحالك الاسود ، القوي الصلد ، المستقيم الممتد ، وهو متقبض الجسم ، مكفهر الوجه ، مما يشعر به من آلام الجراح والاوجاع .

وحين رأى واشق ما حل بأخيه من هزيمة وبوار ، واندحار وانكسار ، دون ان يحكم له احد بدية يودى بها ، او قصاص يقتص به من عدوه الفاتك ، حدثته نفسه ، وقد استولى عليها الفزع ، ونزل بها الجزع انه لا يرى في ذلك الثور مطمعاً ، ولا يرجو من وراء منازلته مغنماً ، فعليه ان يرضى من الغنيمة بالاياب ، فها هو ذا سيده يعود وقد خسر خسارة فادحة ، دون ان يكسب شيئاً ، فما اشقى جده ! وما اتعس يومه !

وقال يصف الليل مخاطباً ابنته : دعيني يا بنيتي لهمومي واوصابي ، دعيني لهم ناصب ، واتركيني لليل قد طال ، حتى أمل ،

وامتد الى ان اثقل واسأم ، فكوا كبه بطيئة المسير ، ونجومه كأنها لا تحول .

لقد استطال ذلك الليل لما نزل بي من الهموم والأوجاع ، حتى حسبت انه لن ينتهي ، وظننت انه مقيم لا يريد أن ينقضي ، وان الراعي الذي يرعى النجوم ويهديها سواء السبيل ، ويسوقها الى غايتها من الأفق البعيد ، قد ذهب الى غير أوبة ، وتركها دون ان ترجى له رجعة ، وإذن فستبقى تلك النجوم حيرى لا تعرف لها قراراً .

دعيني يا اميمتي لصدر قد اثقلته الهموم ، ورد له الليل ما استطار منها في النهار ، فتضاعف حزنه ، وتكاثف شجنه .

وصف الفرات فقال : هبت على الفرات الرياح العواصف ، فثارت امواجه ، وترامى آذيه على شاطئه بالزبد ، تمده الوديان المترعة ، اللجبة بالماء الغزير ، يتناثر فيه الحطام ، ويتجمع من الينبوت والخضد الركام ، فيخشاه الملاح ، ويخافه النوتي ، فيتقيه بسكان سفينه ، ويعتصم منه بدفة مركبه بعد أن بلغ منه الأين والاعياء كل مبلغ ، ونال منه الكرب والشدة كل منال ، إن الفرات وتلك حاله ، وهذا وصفه عندما يفيض فيروي ، ويطمو فيغني ، انه وهو على هذه الحال ليس بأجود منك يدا ، ولا بأكثر منك مدا ؛ اذ الفرات لا يفيض في كل آن ، وفيضك لا يحد بزمان .

ثم وصف الحية فقال : وحيـة خبيثة عاتية تتخـذ من الصخر الصلد لوناً لهـا ؛ حتى لا يتبينها الرائي ، ولا تلتوي على نفسها ؛ لقصر جسمها ، تطيل الأطراف ، وتمعن في التهويم دون أن يكون اطراقها لحياء او طأطأة رأسها لخجل ، وانما هو لاهتبال الفرصة ، والاستعداد للعدة .

وهي داهية دهياء ، ومصيبة نكراء قد طال أجلها ، فعظـم خبثها ، وإن صغر جسمهـا ، حتى لكأن كثرة الفكر هي سبب سقمها ، وأصل ضآلتها ، ولم لا ؟ اليست تفكر في العدوان ، وتنطوي على الغدر والخيانة ؟

وهي واسعة الشدقين حولاء العينين ، تفتح شدقيها الاهرتين عن اسنان عوج حداد كانها الابر .

وكذلك وصف سم الحية وخبثها فقال : يسهر الليل الطويل ، ليل التمام ملدوغها ، لا يتقابل جفناه ، ولا تعرف طريق النوم عيناه ، قد جعل الحلى والخلاخل في يديه ، دائمة الجرس ، مستمرة الصوت ؛ حتى لا ينام لديغها ، فيسري السم في اجزاء جسمه ، ويدب الموت في مفاصله .

يخاف الرقاة منها ، ويناذرون عقباها ، اذ ليست لهم بمطواعة دائما ، فحينا تجيبهم ، وحينـا تعصيهم ، وطوراً تطلق الراقي ، فليس له بها شأن ، وطوراً تراجعه ، فتذعن لامره .

وصف النابغة الاطلال فاسف في هذا الوصف حتى جاءت هذه الابيات دون مستوى شعره ، ومرد هـــذا الاسفاف ان النابغة اراد ان يوجز فدفعه هذا الايجاز الى ان يحمل شعره معاني اكثر مما يحتمل ، نادى شاعرنا الدار ولم يذكر سبب النداء ، انه يريد ان يتحدث اليها عن حبيبته ، اين ذهبت بها الايام ؟ وكيف كان حالها عند احتمالها ؟ الى آخر هذه المعاني التي ترد بخاطر من يريد الى الدار خطابا ، وكاني بالنابغة ناقض نفسه ، فقـــد نادى الدار ، وراح يسائلها فعيت بالجواب ، وما بالربع من احـد ، فهو يعلم هذا قبل سؤالها اذ يقول :

« اقوت وطال عليها سالف الامد » واذن فمـا كان ينتظر الجواب من السكان بل من الدار والابيات الثلاثة الاخيرة ليس فيها جمال الا ذلك الذي يدل على شرفه وسرائه فالوليدة تضرب بالمسحاة في الثأد ، ورفعته الى السجفين ، وليس كل الناس لديارهم سجوف ، والشطر الاخير جماله انه جرى مجرى المثل.

وكأني بالنابغة الوصاف الكامـــل قد عمد في وصف الثور

الوحشي الى وصف قصة تخيلها ، وقص منظر تصوره ، وقد عُنى أن يصف الثور الوحشي في معركة حامية ، وأن يقص علينا قصة حربية ، وهو يجيد القصص ويحسن التصوير .

وقد اتاح له الاجادة في هذين النوعين خياله الواسع ، وشرفه الرفيع ، اذ هيأت له حياته المتحضرة ، ورحلاته المتعددة ، ومنادمته الملوك ، ومصاحبته الاقيال أن يتسع خياله ويجود تصويره .

اختار شاعرنا لهذه المعركة أسلحتها ، وأعد لها عتادها : الثور الوحشي ، والكلاب المبثوثة ، والشك والفرائص ، والمدرى والروق ، والبيطر والعضد ، والسفود والمفتأد ، ثم رأى أن الصلح الشريف غير مستطاع فلا دية ولا قود ؛ فأي الفاظ ميدان تنقص وصف ذلك الميدان ؟ وأي صورة للمعارك أدنى من تلك الصورة التي أعد لها الوانها ، وهيأ لها ميدانها ؛ اذ يقول :

وكانَ « ضمران » منه حيث يوزعه
طعنَ المعارك عند المحجر النجدِ

شكَّ الفريصة بالمدرى فأنفذها
شكَّ المبيطرِ إذ يشفى من القضدِ

كأنه خارجاً من جنب صفحته
سفودُ شربٍ نسوه عند مفتأدِ

فظل يعجُم أعلى الروقِ منقبضاً
في حالكِ اللونِ صدقٍ غيرِ ذي أَوَدِ

لقد كانت معركة النابغة معركة اليمة أسالَ فيها الدماء ، وكأني

به كان من تجار الحرب – كما يقال في الاساليب الحديثة – فعاش حياته داعياً اليها ، محرضاً عليها ؛ حتى بين انواع الحيوان .

تلك معاني النابغة تدل على بيئة حربية ، دلالتها على الحال الحضري ، فليس جميع العرب يعرفون : « سفودَ شربٍ نسوه عند مفتأد » وانما هذا خيال من ينادم الملوك والأمراء .

أما اسلوبه فمستقيم لا أمت فيه ولا عوج ، ولا تركيب ولا تعقيد ، وانما هو يسير على نمط عال من القول ، وقوة محكمة من الرصف . وأما الألفاظ فان النابغة السهل العذب يجزل ويصلب عندما يتناول معاني الحيـــاة الجزلة الصلبة كالناقة والصحارى ، والاوابد والفيافي ، وكأني به يريد محاكاة تامة للطبيعة ، وهذه احدى نواحي قدرته وجلاله .

ثم وصف النابغة الليل فجاء وصفه هـــذا اروع ما نظمه في وصف الليل شاعر ، وهو فيها مقـــلد لامرىء القيس ، وان اختلف القدماء في تفضيل ايهما على الآخر ، فبالغ امرؤ القيس على غير عهد الادب به ، فسوى بين النهار والليـــل في الهم ، فقال انصاره : ان المبالغة هنا اجدى وافضل ، وقصد النابغة على غير عهد الادب به ايضاً في قوله :

وصدر أراح الليل عازب همـــه
تضاعف فيه الحزن من كل جانب

واقتدى به الشعراء ايماناً بجمال معناه ، فقال احدهم :

أقضي نهاري بالحديث وبالمنى
ويجمعني والهمّ بالليل جامع

وقال انصاره في سبب تفضيله : وانه جعل صدره مراحا للهموم ، وجعل الهموم كالنعم السارحة تسرح نهاراً ، ثم تأتي الى مكانها ليلاً ، وهو اول من استثار هذا المعنى ، ووصف ان الهموم مترادفة بالليل لتقيّد الالحاظ عما هي مطلقة فيه بالنهار ، واشتغالها بتقييد اللحظ عن استعمال الفكر »

ومناجاته فتانة من آيات جماله ، فالبنت أشد شعوراً بمصاب أبيها ، وأوفر عاطفة نحوه ، يشجيها شجوه ، ويحزنها همه ، فهي منه قلبه وكبده .

ولننتقل الى وصف الفرات عند شاعرنا ، هذا الوصف الذي جاء عرضاً حين اراد النابغة أن يصف النعمان بالكرم والسخاء ، فصور فيضان الفرات حينما تهب عليه الريح ، وتتلاطم الأمواج ، ويصطخب الآذي ، وصور مده ، وما يحمله معه من حطام وركام كل ذلك في اسلوب قوي قوة الماء حين يثور ، والنهر عندما يفيض ، وقد اصطفى الألفاظ التي لا ينوب عنها غيرها في معانيها فالآذي ، والعبرين ، والزبد ، واللجب ، والركام والينبوت كلها الفاظ تشعرك بالروعة والقوة ، وبالغ كما كان ذلك شأنه ، فلم نشعر

الا انه صادق فيما روى ، وهذا خير ما يرجى من شاعر .

وصف النابغة الحية فأجاد في وصفه حتى انها لتخيف دون ان ترى ، فالصورة التي رسمها لها صورة نكراء ، وكذلك ابدع في وصف خلقها فهي خبيثة داهية «طويلة الأطراق من غير خفر» .

واسلوب النابغة هو اسلوبه الجميل الرائع ، العذب السائغ ؛ فالحية : « لا تنطوي من القصر » وهي « طويلة الاطراف » وهي « قد صغرت من الكبر » .

ثم انتقل شاعرنا إلى وصف سم الحية وخبثها فأجاد في تصوير حال السليم عند العرب ، وفي رسم تطبيبهم سليمهم ، فهم يلبسونه الحلي ويحكونها ؛ ليسمع جرسها فلا يغلب عليه النوم ، فيدب السم في جسمه ، وتناذر الرقاة اياها ، ينبىء أنها رقشاء قتول .

أما الاسلوب ؛ فيبدو جماله في اتساع الفاظه ، وانتظام حروفه ، وملاءمة بعضها لبعض ؛ فالسين في البيت الثاني يشعر تكرارها بوسوسة الحلى ، وجرسها ، على ان السين أكثر من سواه في البيتين الآخرين ، وجعل خبر بات الجملة الاسمية التشبيهية قوي المعنى وزاده جمالاً .

ـ صحة نسبة الشعر الجاهلي ـ

لا ريب في ان الشعر الجاهلي المصدر الوحيد لتاريخ الحضارة العربية قبل الاسلام ، ولا شك في ان الاصول التي يستند اليها في درس تاريخ الحضارة لا تختلف عن الاصول التي يستند اليها لمؤرخون عامة . وقد يكون من الخطأ التمييز بين درس تطور الحضاره عند شعب من الشعوب ودرس تاريخ هذا الشعب خلال العصور .

ولعل افضل تحديد للتاريخ ما قاله ابن خلدون فيه ، من أنه « الخبر عن المجتمع الانساني » فيمتد عندئذ اثره ويشمل المؤسسات والانظمة وتطور الفكر وسائر ما يمكن ان يعد من عوامل الحضارة في المجتمع الحي ، اي في المجتمع الذي هو على تطور دائم ، ويضمحل الفارق بينه وبين تاريخ تطور الحضارة ، ويمسي من النافل ذكر الاحداث السياسية اذا كانت لم تترك اثراً في تطوير المجتمع .

الاصول :

يستند تاريخ الحضارة الى اصول التاريخ الصحيح عامة ، وهي

البقايا المادية من الابنية واطلال ورقم ونقود ووثائق مختلفة يعمد المؤرخ الى تزييفها او الجزم بصحتها .

لكن هذه الاصول غير متوفرة لمن يستقصي احوال العرب في الجاهلية . فليس ثمة ابنية ، والعهد عهد خيام وبداوة، وليس هنالك نقود والتجارة قائمة على المقايضة ثم عـــلى استعمال النقود الاجنبية كالدراهم والدنانير . ولا وثائق مكتوبة والعصر عصر ادب شفهي لا يعوّل على الكتابة .

والوثيقة المهمة المعروفة باللغة المضرية ، والتي ضمنها العرب ما يمكننا الاطلاع على احداثهم واخبارهم وكل ما يـدل على حياتهم الاجتماعية هو الشعر ، لهذا قال ابن قتيبة : « الشعر ديوان العرب » اي ذلك السجـل الذي تضمن احداثهم واخبارهم . وقال الأب لامنس اليسوعي « الشاعر الجاهلي هو صحفي تلك الأيام »

صحة نسبة الشعر الجاهلي :

ومن البديهي ان يبحث المؤرخون في قيمة هـــذه الوثيقة التاريخية ، وان يتساءلوا عن صحة نسبة هـذا الشعر الذي تناقله الرواة ردحاً طويلاً من الزمن قبل ان يتيسر له من يثبته بالقلم في عصر الأدب الكتابي ، عصر التدوين والكتابة .

واول من اكبّ على هـــذا البحث محمد بن سلاّم الجمحي

صاحب كتاب « طبقات الشعراء » في القرن التاسع الميلادي فقد اختار قسما كبيراً من الشعر الذي كان يتناقله الرواة ، وضمنه كتابه وقدّم له ببحث مستفيض درس فيه اسباب نحل الشعر ، والاسس التي ارتكز عليها في اختيار ما ضمنه كتابه .

ثم نام البحث نحو الف سنة حتى قام المستشرق مرغليوث ونشر في المجلة (الاسيوية الانكليزية) سنة ١٩٢٢ مقالاً استغل فيه الأسباب التي اوردها محمد ابن سلاّم الجمحي لنحل الشعر في مقدمة كتابه طبقات الشعراء ، وتوسع فيها مع شيء من التحفظ .

وبوسعنا ان نتسائل بدورنا عن سبب هذا الصمت الطويل الذى قطعه مرغليوث بمقاله ، وقد . نهتدي الى اكتشافه اذا عرفنا ان كتاب محمد بن سلاّم الجمحي «طبقات الشعراء» لم ينشر مطبوعاً إلا سنه ١٩١٦ في هولندا . ومن الراجح ان هذا الكتاب بقي مجهولا مدة سني الحرب ، وانه لم يتيسر له الانتشار إلا بعد انتهائها فعثر عليه مرغليوث واستغله .

وبعد مقال مرغليوث وفي سنة ١٩٢٦ قام الدكتور طه حسين ونشر كتاباً اسماه « في الشعر الجاهلي » يقع في مائة وثمانين صفحة من القطع الصغير ووقفه كله على مهاجمة صحة نسبة هذا الشعر .

والجدير بالذكر ان الدكتور طه حسين شك في كل ما وصل الينا من الشعر الجاهلي وتطرق شكه الى انكار وجود بعض

شعراء الجاهلية وقد رد شكه هذا الى اسباب ستة :

اولاً : لم تكن اللغة واحدة في جميع القبائل التي وردنا عنها الشعر ، قبل الاسلام ، ولم يكن بالتالي ممكناً ان تأتي هـذه القصائد كلها في لغة واحدة .

ثانياً : كانت السياسة تدفع الكثيرين من المنتمين الى الاحزاب والقبائل المتنافرة الى نحل الشعراء ما لم يقولوه ، في سبيـل مدح آبائهم واجدادهم .

ثالثاً : وضع المسلمون كثيراً من الشعر على لسان القدماء ولا سيما الكهان ليصوروا به انتظار القوم مجيء النبي كما كان اليهـود ينتظرون مجيء المسيح ، وفعل القرشيون والانصار مثل هـذا بعد الاسلام على سبيل المفاخرة .

رابعاً : نظم القصاصون الكثـير من الشعر ووضعوه على لسان ابطال رواتهم .

خامساً : اورث تنافس الشعوبية والعناصر العربية كثيراً من الشعر المنحول .

سادساً : وضع الرواة والعلماء كثيراً من الشعر استعـانوا به في سبيل تأييد نظرياتهم النحوية واللغوية .

احدث كتاب الدكتور طه حسين (في الشعر الجاهلي) موجةً من الاستياء الشديد في الأوساط الأدبيـة والدينية مما اضطر

الحكومة الى اتلاف هذا الكتاب . ولكن طه حسين عاد في سنة ١٩٢٧ م ونشر الكتاب نفسه بعد ان حذف منه واضاف اليه تحت عنوان (في الأدب الجاهلي) . وقد جاء هذا الكتاب في ثلاثمائة وستين صفحة من القطع المتوسط استغل فيه ما جاء في مقدمة كتاب « طبقات الشعراء » لمحمد بن سلاّم الجمحي وما ورد في مقال مرغليوث من اسباب نحل الشعر مع شيء من التعميم والشمول والتطرف والغلو مما كان له الأثر السيء في الاوساط العلمية والأدبية .

وقد تصدى للرد على الدكتور طه حسين جمهور غفير من الأدباء كان اكثرهم افحاماً واقواهم حجة الاستاذ احمد محمد الغمراوي في كتابه « النقد في الادب الجاهلي » . ولا نغالي اذا قلنا ان شهرة الدكتور طه حسين قامت على هذا الكتاب وأن ذيوع صيته كان نتيجة لمخالفته للمألوف وصدق من قال « خالف تعرف » .

التعليق : - بين هذه الاسباب الستة التي دفعت الدكتور طه حسين الى الشك في صحة نسبه الشعر الجاهلي جملة ، اول مايسترعي الانتباه ، السبب الاول ، اي السبب اللغوي . فاذا صح ان كان لكل قبيلة لغة تختلف عن لغة جاراتها ، كان الشك في الشعر

الجاهلي مشروعاً ، واصبح النحل صحيحاً بيناً . غير ان هذا يفتقر الى برهان ، وليس لدينا اي اثر نستدل منه على ان لغة القبائل لم تكن واحده .

اما الدكتور طه حسين فقد استند الى رقيم اثري وجد على قبر امرىء القيس البدء اول ملوك الغساسنة والذي اكتشفه المستشرق دوسو في باديه النماره . وهذا نصه كما يقرأ كل سطر على حده :

١ – تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو اسر التاج .

٢ – وملك ألاسدين ونزار وملوكهم وهرب مذحجو عكدي وجاء .

٣ – يزجود ؟ في جيح نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه .

٤ – الشعوب ووكله لفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه .

٥ – عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ١٧ بكسلول بلسعد ذو ولده .

« هذا لسان عربي تشوبه صبغة آرامية يحتاج تفهمها الى ايضاح ، وهاك تفسير هذه الكتابة باللغة العربية الفصحى وهو : –

١ – هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي تقلد التاج .

٢ – واخضع قبيلتي اسد ونزار وملوكهم ، وهزم مذحج الى اليوم وقاد .

٣ – الظفر الى اسوار نجران مدينة شمر ، واخضع معدا ، واستعمل بنيه .

٤ – على القبائل وانابهم عنه لدى الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه .

٥ – الى اليوم توفى سنة ٢٢٣ يوم ١٧ ايلول (سبتمبر) وفق بنوه السعادة .

ونتساءل امام هذا الاثر : الى اي عهد يرقى هذا القبر ؟ والى اي عهد يرقى الشعر الجاهلي الذي هو بين يدينا الآن ؟ وفي اي مكان عثر على هذا القبر ؟ وفي اي مكان عاش الشعراء الجاهليون الذين نتكلم عنهم ؟

ولا تتعذر علينا الاجابة على هذه الاسئلة . فالرقيم مؤرخ لحسن الحظ في ١٧ ايلول من سنة ٢٢٣ في اوائل القرن الثالث بين اقدم شعر وصل الينا لا يتجاوز اوائل القرن السادس .

اما القبر فهو لأحد ملوك الغساسنة . ومعلوم ان لغه الغساسنة

كانت حتى ظهور الاسلام مشوبه بالسريانية ، وهم يعاقبه من مذهب الطبيعه الواحده . واننا لا نعرف شاعراً واحداً نبت من الغساسنه او من عرب الشام قبل الاسلام . ثم ان القبر وجد في النماره ، في حوران والشعر الذي لدينا آت في معظمه من نجد والحجاز ...

وقد يحتج باصل امرىء القيس اليمني مثلاً ، ويقل لنا ان لغة اليمن كانت تختلف كل الاختلاف عن لغة الشمال ، لتأثرها بالحبشية والحميريه ، ولكن امرىء القيس ولد في نجد ، وكان اجداده ملوكاً على بني اسد ، وهو لم يعرف لغة اليمن القديمة في يوم من الايام .

وما من شك في ان نجد والحجاز واطراف العراق التي ورد عن شعرائها الشعر ، عرفت تعدداً في اللهجات ، ولكن هذا الاختلاف كان في اللفظ والنبرة ، لا في القواعد الاساسية فعنعنة تميم وعجعجة قضاعة مثلاً شبيهتان باختلاف لفظ الألف في لبنان التي يضمها اهل الشمال ويميلها اهل الوسط ويخفضها اهل الجنوب ، او باختلاف لفظ الكاف التي تلفظ « شينا » عند بعض العرب او « القاف » التي تقرأ « جيما » .

وبين البدو اليوم رحالون ينظمون بلهجاتهم ولكنه لا يتعذر

علينا فهم ما يقولون عندما نكتبه .

ومن الممكن ان تكون الحقبه التي سبقت الاسلام عرفت اختلافاً بين اللهجات اقوى من هذا الذي نذكر ، ولكنه من الارجح ان نظام المعيشة الذي كان يفرض على القبائل الانتقال والاختلاط والاحتكاك الدائم في المراعي قرّب اللهجات وساعد على توحيدها . لهذا لم يذكر محمد بن سلام الجمحي ، بين ما ذكر من اسباب للشك ، تعدد اللهجات بين قبائل العرب ، وهو اقرب من الدكتور طه حسين ومرغليوت للفصل في امرها .

اما الشعر المنحول الذي وضع لاسباب سياسية او دينية او عنصرية او لغوية فقد تنبه له القدماء وتتبعوه وبينوا زيفه . وفي الأغاني وغيره من المصادر القديمة روايات عديده لأبيات ادركها النقاد وشكوا في صحتها وطرحوها - وخير شاهد على صحة ما نقول كتاب « طبقات الشعراء » نفسه وكتاب « السيره » لابن هشام .

اما الاشعار الموضوعة على السنة ابطال الروايات ، فانه لايخطر ببال احد ان يصدق صحة نسبتها - واذا كان الدكتور طه حسين اتى على ذكرها ، فلكي تكون المجموعة كاملة . .

وكان الانسب ان يسمى كتابه « اسباب وضع الشعر على

ضوء ما قاله القدماء ، وان يذكر فيه ان الشعر الموضوع قد ادركه الاقدمون وبينوا زيفه ، او على الأقل زيف معظمه .

الشك حالة فلسفية تعتري الانسان ويتردى فيها بين الشك واليقين . ولكن ما قيمة هذا الشك إذا كان لا يقودنا لا الى اليقين ولا الى الانكار ؟ والنقد الخارجي مستحيل في مثل هذه الحال ، لأنه يقودنا الى الرواة ، لا الى المخطوطة ، والنقد الداخلي ايضاً متعذر ، لانه يقودنا الى مقارنة قصيدة مشكوك فيها ، بقصيدة اخرى مشكوك فيها كذلك . فهو هنا ليس بالاسلوب العلمي في شيء .

ومهما يكن من امر وعلى فرض ان الشعر الجاهلي منحول بكامله ، فان نحله لا يقلل من قيمته كمصدر هام من مصادر تاريخ الحضارة العربية قبل الاسلام . ولو لم يكن الشعر المنحول صورة طبق الأصل من الشعر الأصيل لما انطلى زيفه على الاقدمين ، ولما وصل الينا واثار بين ادبائنا مثل هذا الجدل .

- انتهى -

- اسئـــلة -

س ١ - تحدث بايجاز عن حياة النابغة ونشأته ؟

س ٢ - تكلم باسهاب عن آثاره وديوانه ؟

س ٣ - اشرح وحلل وانقـد الأبيات التي يصف فيها الثور الوحشي ؟

س ٤ قارن بين وصف الليل عند النابغة وبينه عند امرىء القيس ؟

س ٥ - اشرح وحلل وانقد الابيات التي يصف فيها الفرات ؟

س ٦ - اشرح وحلل وانقد الابيات التي يصف فيها الحيـة وسمّها واثر خبثها ؟

س ٧ - ماهي المصادر لتاريخ الحضارة العربية قبل الاسلام ؟

س ٨ - اثبت او إنف صحه نسبة الشعر الجاهلي ؟

س ٩ - قارن بين موقفنا من الشعر الجاهلي وبـين موقف الدكتور طه حسين منه ؟

— الفهرست —

	صفحة
النابغة الذبياني	٥
حياته ، نشأته	٦
بين الحيره ومدن غسان	٨
اهتمامه بقومه — الشاعر السياسي	٩
في بلاط النعمان	١٣
الدس على النابغة	١٥
عند الغساسنه	١٨
الرجوع الى النعمان بن المنذر	٢٠
وفاته	٢٢
صفاته واخلاقه — دينه	٢٢
آثاره — الديوان	٢٥
الوصف في شعره	٢٨
وصف الثور الوحشي	٣٠

	صفحة
وصف الليل	٣٣
وصف الفرات	٣٤
وصف الحية	٣٤
وصف اثر سم الحية وخبثها	٣٥
تحليل النصوص	٣٧
نقد النصوص	٤٢
صحة نسبة الشعر الجاهلي	٤٧

هدية
المؤلف للمكتبة
الجامعة الاردنية
بيدر
طه محمد الضاضي

٢

النفائس

سلسلة أدبية تبحث في الشعر والنثر
تهم الطالب والباحث والمدرس

الوصف في شعر امرئ القيس

بقلم

طه محمد القاضي
(ليسانس في الادب العربي)

حقوق الطبع محفوظة

بيروت - نيسان ١٩٥٥

الطبعة الاولى

المصادر والمراجع

امرؤ القيس : الروائع ٧ فؤاد افرام البستاني – الطبعة الثانية .

الشعر الجاهلي : (الروائع ٢ : ٤٢) فؤاد افرام البستاني.

ابو زيد القرشي : جمهرة اشعار العرب (طبعة الخشاب مصر ١٣٣٠ (١٩١١) .

ابن عبد ربه : العقد الفريد ، مصر ، ١٣٠٢ (١٨٨٤) .

ابن قتيبة : الشعر والشعراء (طبعة de Cocie) ليدن ١٩٠٤ .

ابو الفرج الاصبهاني : كتاب الاغاني ، بولاق ١٨٦٨ في اجزاء عديدة خصوصاً : ٢ و ٨ .

ابن رشيق : العمدة ، مصر ، ١٩٠٧ .

البطليوسي : شرح ديوان امرىء القيس ، مصر ، ١٢٨٢ (١٨٦٥) .

الزوزني : شرح المعلقات (طبعة حجرية بخط ابي صعب ،

دير القمر ، ١٨٥٣ .
التبريزي : شرح القصائد العشر (طبعة Lyall) كلكتا ، ١٨٩٤ .
وليم ابن الورد : الشعراء الستة الجاهليون ، لندن ، ١٨٧٠ .
سليمان البستاني : مقدمة الألياذة ، مصر ، ١٩٠٤ .
الأب لويس شيخو : شعراء النصرانية بيروت ١٨٩٠ .
« « « : مزدكية امرىء القيس المشرق (٨ (١٩٠٥) ص ٩٩٨ ...)
البستاني : دائرة المعارف ، بيروت ، ١٨٨٠ .
عبد العظيم علي قناوي : الوصف في الشعر العربي ، الجزء الأول : مصر ، ١٣٦٨ ، (١٩٤٩) .

امرؤ القيس

اجداده

ملوك كندة ووائل

يعود نسب شاعرنا الى كندة . وهي قبيلة يمنية الاصل ، كان اهل امرىء القيس مملكين عليها من قبل تبع ملك حمير .

وحدث أن اشتدّ الخلاف بين البكريين في نجد ، وفسد امر حكامهم ؛ فاجتمع شيوخهم وحكماؤهم وقالوا : « ان سفهاءنا قد غلبوا علينا حتى اكل القوي الضعيف ، ولا نستطيع دفع ذلك . فنرى ان نملك علينا ملكا نعطيه الشاء والبعير ، فيأخذ للضعيف من القوي ، ويرد على المظلوم من الظالم ولا يمكن ان يكون من بعض قبائلنا فيأباه الأخرون . ولكنا نأتي تُبّعاً فنملكه علينا . » فقصدوا ملك اليمن ، فملك عليهم حجراً امير كندة المعروف « بآكل المرار[1] »

---

(١) كان حجر هذا جد امرىء القيس . واصل تلقيبه بآكل المرار فيه آراء متضاربة اوجهها انه سمي بذلك لكشر كان به – لان المرار ، وهو نبات شديد المرارة ، يقلص مشافر الابل . او سمي كذلك لانه ، لما بلغه سبي امرأته اخذ يأكل المرار من الغيظ ، وهو يدري . (راجع الاغاني : ٨ : ٦٣)

فانتقل باهله الى ديار بكر ، في مقاطعة نجد ، وترك اليمن وهذا الحادث ينبهنا الى ان امرء القيس ، وإن عدّ في شعراء اليمن ، فليس له من اليمنيه الا النسب . اما النشأة الشاعرية والطريقة فهي نزارية محضة .

وسار حجر في ملكه على طريقة سوية ، فاصلح فساد البكريين واعاد اليهم ما كان انتزعه اللخميون من ارضهم وساسهم بحزم وادارة الى ان مات فأسفوا عليه .

ثم ملك ابنه عمرو المعروف « بالمقصور » . ثم الحرث بن عمرو ، جد امرىء القيس . وكانت امه من بني شيبان وهم ينزلون الحيرة . فنزلها وحكم فيها ، على عهد قباذ ملك الفرس .

وحدث ان عاد الخلاف بين قبائل نزار فعم الفساد ، حتى اتى شرفاؤهم الحرث فقالوا : « انا في دينك ، ونحن نخاف ان نتنافى فيما يحدث بيننا . فوجه معنا بنيك ينزلون فينا ، فيكفون بعضنا عن بعض . » وكان للحرث خمسة بنين : حجر والد امرىء القيس ، ومعدي كرب الملقب « بالغلفاء » لانه كان يغلف رأسه بالطيب ، وشرحبيل ، وسلمة ، وعبد الله . ففرّقهم ابوهم في القبائل . فملك حجراً على بني اسد وغطفان . وملك معدي كرب على بني تغلب وطوائف بني دارم وبني رقية .

وملك شرحبيل على بكر بن وائـــل وحنظلة . وملك سلمة على بني قيس . وملك عبد الله على بني عبد القيس . وبقي الحرث زمناً في نعيم ، حتى طلبه انو شروان ، وكان لا يزال حاقداً عليه لأنه كان قد مالأ ــ المزدكية على عهد والده قباذ . فبلغ ذلك الحرث ، وكان يقيم في الانبار ، فخرج هارباً في هجائنه وماله وولده . وتبعه الملك المنذر ، عامـل كسرى ، بكوكبة من خيل تغلب وبهراء واياد . فلحق الحرث بارض كلب ، فنجا بعد ان انتهب ماله . وقبض بنو تغلب على ثمانية واربعين من بني آكل المرار فقتلوهم بجفر الاملاك . في ديار بني مرينا العباديين ، بين دير هند والكوفة وفيهم يقول امرؤ القيس .

الا يا عينِ بكي لي شنينا وبكي لي الملوك الذاهبينا

وظل الحرث في بني كلب حتى قتله هؤلاء على قولهم[1] .

---

(١) اما علماء كندة فيزعمون ان لم يقتله بنو كلب ، بل انه خرج يوماً الى الصيد فتبع تيساً من الظباء فأعجزه . فحلف الا يأكل اولا الا من كبده . فطلبته الخيل ثلاثاً ، فاتى به بعد الثلاث وقد هلك الحرث جوعاً . فشوي له من الكبد وتناول فلذة فأكلها حارة ، فـــمات . اطلب ابن قتيبة : كتاب الشعر والشعراء ، ص ٣٧ ، والاغاني ٨ : ٦٤ .

مصير والده

وبتي حُجر مدة ملك بني اسد يأخذ منهم اتاوة في كل سنة الى ان ارسل سنة جابيه في طلب ذلك . فمنعوه وضربوه ضرباً شديداً . وكان حجر بتهامـــة ، فسار اليهم بجند من ربيعة وكنانة وقيس . فأتاهم واخذ سرواتهم ، فجعل يضربهم بالعصا حتى الموت . فسمّوا « عبيد العصا » . واباح اموالهم وصيرهم الى تهامة فحبس فيها اشرافهم . ثم رق لهم ، فاستكانوا . حتى وجدوا منه غفلة فقتلوه .

وخلف حجر عـدة اولاد اكبرهم نافع ، واصغرهم امرؤ القيس .

امرؤ القيس

٥٠٠ ؟ – ٥٤٠ ؟ [١]

حياته

قبل مقتل ابيه

اسمه

امـــرؤ القيس بن حجر ، بن الحرث الملك ، بن عمرو المقصور ، بن حجر آكل المرار ، بن معاوية ، بن ثور المعروف بكندة . ولد في نجد . وامه فاطمة بنت ربيعه ، اخت كليب

---

(١) ذكر الاستاذ افرام البستاني في العدد (٧) الطبعة الاولى من الروائع ان السنة ٥٦٥ تاريخاً لوفـــاة امرىء القيس جاريا اثر الاب شيخو (شعراء النصرانية ، ص ٧) ولكنه اردف ذلك الرقم بعلامة استفهام (؟) ثم عاد فراجع ما يذكره مؤرخوا الروم عن شاعرنا ، وقارن بين الحوادث التي جرت على عهده في البلاد العربية ، وما كان من علاقات بين امرائها وملوك الروم والفرس فراى ان نأخـــذ برأي دي برسفال الجاعل ولادة شاعرنا حول السنة ٥٠٠ ووفاته حول السنة ٥٤٠ محتفظا بعلامة الاستفهام دلالة على عدم اطمئنانه التام للتاريخ المذكور .

والمهلهل التغلبيين على قول ابن قتيبة[1] وصاحب الاغاني . وللرواة بعض الاختلاف في اسمه فقد قال الوزير ابو القاسم المغربي ان اسمه جندح « وامرؤ القيس » لقب غلب عليه لما اصابه من تضعضع الدهر ، ومعناه « رجل الشدة » ؛ وذكره مؤرخو الروم باسم « قيس » . وهو امرؤ ليس تحته اهمية ، لبعد عصر الشاعر عنا ، وامكان تأويل هذا الاختلاف بأن الوزير المغربي اراد ان يشرح معنى « امرىء القيس »[2] ، وبأن مؤرخي الروم لم يحفظوا الا المقطع الاخير من اسمه . اما ان

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء، ص ٤٢ الاغاني - ٨ : ٦٣ - وقد شك بعض المستشرقين وادباء العصر في الامر ، مستندين الى ان الشاعر لا يذكر كليباً ولا المهلهل ، بل يذكر خالا له يدعوه ابن كبشة فقالوا : قد تكون اطمة المذكورة امرأة ابيه لا امه . وقد تكون هي التي شبب بها في قوله : « افاطم مهلا بعد هذا التدلل ... » اما ابن قتيبة وصاحب الاغاني فيؤكدان اولا ان ام الشاعر هي فاطمة بنت ربيعة . وثانيا ان فاطمة المذكورة في شعره « هي بنت العبيد بن ثعلبة بن عوف بن كنانة بن عوف بن عذرة وهي التي يقول فيها ايضا : «لا وابيك ابنة العامري .» .. ابن قتيبة : ٤٨ ، والاغاني ٨ : ٢٦٠

(٢) وقد اشتهر غير صاحبنا من الشعراء باسم امرىء القيس منهم : امرؤ القيس بن همام الكلبي ، وامرؤ القيس بن منذر الكندي ، وامرؤ القيس بن عابس الكندي ايضا والى هذا ينسب الرواة ابياتا نجدها في ديوانه

نستنتج من اختلاف الرواة في اسم الرجل سبيلا الى الشك (وان كان شكا يكتنفه الترجيح) في حقيقة وجوده [1]، فهي السذاجة بعينها.

ولوعه بالشعر – ملذاته

نشأ امرؤ القيس في الترف واللهو، شأن اولاد الملوك، فلم ينقصه امرٌ من ملذّات الحياة، وكان جميل الطلعة وسيما [2] مفطوراً على الشعر، فنظمه فتىً، وتوسع في انواعه من اوصاف الملاهي والالعاب وايام السرور والمغامرات الغرامية بكلام كان يتجاوز احياناً الى ذكر امور انف منها ابوه فحرمها عليه ونهاه عن قول مثل هذا الشعر، فلم ينته. فغضب منه وطرده

فكان امرؤ القيس يتنقل في احياء العرب، ومعه بعض الاصحاب من شبان طيء وكلب وبكر. فاذا صادفوا غديراً او روضة، او موضع صيد، نزلوا فيه، فاصطادوا، واكلوا، وشربوا الخمر، واقاموا ينشدون الشعر وتغني لهم القيان حتى ينضب ماء الغدير، او ينفد الصيد. فيحملهم امرؤ القيس الى غيره [3]. وفي اثناء ملاهيهم هذه قال شاعرنا المعلقة على الارجح

---

(١) الدكتور طه حسين: في الادب الجاهلي، ص ٢١١

(٢) ابن قتيبة الشعر والشعراء، ص ٤٧

(٣) الاغاني ٨ : ٦٨

وصول الخبر .

كان امرؤ القيس يبدمون من ارض الشام ، وقيل من ارض اليمن[1] ، يشرب الخمر ويلعب مع نديم له بالنرد ، اذ اتاه نعي ابيه . وكان ذلك ، على رأي دي برسفال[2] حول السنة ٥٢٥ ، وعمر امرؤ القيس اذ ذاك نحو ٢٥ سنة . وهو يوافق رأي الهيثم « ان امرءَ القيس لما قتل ابوه كان غلاماً قد ترعرع[3] » وشرح ابن السكيت كيفية ذلك فقال : « ان حُجراً ، لما طعنه بعض بني اسد ولم يجهز عليه ، اوصى ، ودفع كتابه الى رجل من بني عجل يقال له « عامر الاعور » وقال له : « انطلق الى ابني نافع ، فان بكى مالهُ عنه ، واستقرء اولادي واحداً حتى تأتي امرء القيس ، فان لم يجزع ، فادفع اليه سلاحي وخيلي ووصيتي ، وقد كان بيّن في وصيته من قتله ، وكيف كان خبره . فانطلق الرجل الى نافع ، فاخذ التراب فوضعه على

---

(١) الاغاني ٨ : ٦٨

(٢) de Perceval , o p. cit . II , 295 (الروائع ٧ الطبعة الثانية) .

(٣) الاغاني ٨ : ٦٨

رأسه . فتركه يبكي ، واستقراهم واحداً واحـدا ، فكلهم فعل ذلك . حتى أتى امرء القيس فوجده في الحالة التي ذكرناها فقال له : « قتل حجر ! » فلم يلتفت اليه . اما النديم فامسك عن اللعب . فقال امرؤ القيس : « اضرب ! » فضرب حتى اذا فرغ قال : « ما كنت لافسد عليك دستك »[1] ثم اقبل على الرسول فسأله عن امر ابيه بالتفصيل فاخبره . فقال « ضيعني ابي صغيراً وحملني دمه كبيراً !لا صحو اليوم ولا سكر غداً! اليوم خمر وغداً امر . » فذهب مثلاً .

ثم شرب سبعاً . فلما صحا ، آلى الا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ، ولا يدهن بدهن ، ولا يلهو بلهو ، ولا يغسل رأسه حتى يدرك رأس ابيه فيقتل من بني أسد مائة ، ويجز نواصي مائة . وقال :

ارقت ولم يأرق لمـا بي ، نافـعُ
وهاج لي الشوق والهموم الروادعُ

الاستعداد لطلب الثأر–وفود بني أسد

ثم شرع شاعرنا يعد العدد ويجهز الأسلحة لمحاربة بني أسد

---

(١) الاغاني ٨ : ٦٧ ٦٨

فبلغهم ذلك ، فاوفدوا اليه رجالاً من كبارهم فيهم المهاجر بن خداش ، وقبيعة بن نعيم ،وكان هذا ذابصيرة بمواقع الامور . فكان بينهم وبين امرىء القيس مشهد مؤثر نقله صاحب الأغاني عن حديث يرقى الى ابي عبيدة عن سيبويه عن الخليل .

فلما علم امرؤ القيس بمكانهم ، امر بانزالهم وتقدم باكرامهم والافضال عليهم، واحتجب عنهم ثلاثاً فسألوا عنه من حضرهم من رجال كندة ، فقالوا : «هو في شغل باخراج ما في خزائن ابيه حجر من السلاح والعدّة » .

فقالوا : « اللهم غفراً! انما قدمنا في امر نتناسى به ذكر ما سلف ، ونستدرك به ما فرط فليبلغ ذلك عنا ». فخرج اليهم في قباء ، وخف ، وعمامة سوداء ، وكانت العرب لا تعتم بالسواد الا في التراث . فلما نظروا اليه ، قاموا له، وبدر اليه قبيعة :

« انك في المحل والقدر والمعرفة بتصرف الدهر وما تحدثه ايامه ، وتنتقل به احواله ، بحيث لا تحتاج الى تبصير واعظ ، ولا تذكرة مجرب ، ولك من سؤدد منصبك ،وشرف اعرافك وكرم اصلك في العرب محتمل يحتمل ما حمل عليه من اقالة العثرة ، ورجوع عن هفوة . ولا تتجاوز الهمم الى غاية الا

رجعت اليك ، فوجدت عندك من فضيلة الرأي ، وبصيرة الفهم وكرم الصفح في الذي كان من الخطب الجليل الذي عمت رزيته نزاراً واليمن ، ولم تخصص كندة بذلك دوننا ... كان لحجر التاج والعمة فوق الجبين الكريم ، واخاء الحمد ، وطيب الشيم ، ولو كان يفدى هالكٌ بالانفس الباقية بعده ، لما بخلت كرائمنا على مثله ببذل ذلك ، ولفديناه منه

ولكن مضى به سبيل لا يرجع اولاه على اخراه ولا يلحق اقصاه ادناه . فأحمدُ الحالات في ذلك ان تعرف الواجبَ عليك في احدى خلال : اما ان اخترت من بني أسد اشرف بيتاً ، واعلاها في بناء المكرمات صوتاً ، فقدناه اليك بلسعة ، يذهب مع شفرات حسامك ... او فداءٌ بما يروح من بني أسد من نعيمها ، فهي الوف تجاوز الحسبة ... واما ان توادعنا حتى تضع الحوامل ، فنسدل ، ونعقد الخمر فوق الرايات . »

فبكى امرؤ القيس ساعة ، ثم رفع رأسه ، فقال :

« لقد علمت العرب ان لا كفء لحجر في دم ، واني لن اعتاض به جملاً او ناقة ، فاكتسب بذلك سبة الأبد وفت العضد واما النظرة ، فقد اوجبتها الاجنة في بطون امهاتها ، ولن اكون لعطبها سبباً . وستعرفون طلائع كندة ، من بعد ذلك ، تحمل القلوب

حنقاً ، وفوق الأسنة علقاً .

« اذ جالت الخيل في مأزق

تدافع فيه المنايا النفوسا ،

« أتقيمون ام تنصرفون ؟ »

قالوا : « بل ننصرف باسوإ الاختيار ، وابلى الاجرار ، لمكروه واذية ، وحرب وبليّه » . ثم نهضوا عنه ، وقبيعة يقول متمثلاً :

« لعلك ان تستوخم الموت ، ان غدت

كتائبنا في مأزق الموت ، تمطرُ ! »

فقال امرؤ القيس : « لا والله استوخمه ! فرويداً لينكشف لك دجاها عن فرسان كندة ، وكتائب حمير . ولقد كان ذكر غير هذا اولى بي ، اذ كنت نازلاً بربعي ، ولكنك قلت فأجبت »[1]

طلب الثأر

وارتحل امرؤ القيس فنزل على بكر وتغلب فاستنصرهم فساروا معه الى ان ادركوا بني اسد . فقاتلوهم حتى كثرت

(١) الاغاني ٨ : ٧٥ – ٧٦

الجرحى والقتلى فيهم وحجز الليل بينهم . وكانت تلك الوقعة على بني اسد ، فهربوا لاجئين الى المنذر الثالث ملك الحيرة .

ولما اصبحوا تراجعت بكر وتغلب عن نصرة امرىء القيس وقالوا : « قد اصبت ثأرك » : والله ما فعلت ولا اصبت من بني كاهل ، ولا من غيرهم من بني أسد ، احداً » قالوا : بلى ولكنك رجل مشؤوم ! » وانصرفوا عنه .

عند ذاك لجأ امرؤ القيس الى ابن عمته عمرو بن هند ،وكان والياً لابيه المنذر ببقة ، بين الأنبار وهيت ، فمدحه. واستقبله عمرو فمكث الشاعر عنده زماناً . حتى عرف به المنذر ، وقد ذكرنا ان الاسديين لجأوا اليه ، فطلبه . فانذره ابن عمته . فهرب الى اليمن مستنصراً اذ وشنوءة ، فابـــوا أن ينصروه . فتركهم قاصداً ذوي قرباه من بني حمـــير ، فاعطوه خمسمائة رجل ، وتبعه غيرهم من شذاذ الطرق ، واستأجر من القبائل رجالاً ، فسار بهم طالباً بني أسد .

ومر في طريقه على تبالة وبها صنم كان العرب يعظمونه يقال له « ذو الخلصة » فاستقسم عنده بقداحه ، وهي ثلاثة : الآمر، والناهي ، والمتربص . فاجالها ، فخرج الناهي . ثم اجالها ، فخرج الناهي . ثم اجالها فخرج الناهي .فجمعها وكسرها

وضرب بها وجه الصنم ، وقال : « ويحك ابو ابوك قتل ، ما عقتني ! » ثم خرج فظفر ببني أسد [1] .

طلب المنذر لامرىء القيس - تنقله في القبائل : « الملك الضليل » وكان ان المنذر شدد الطلب على امرىء القيس ، فوجه الجيوش في ذلك ، فتفرقت حمير . ونجا الشاعر في عصبة من بني آكل المرار ، وكان ذلك نحو السنة ٥٢٧ [2] حتى نزل بالحرث بن شهاب من بني يربوع بن حنظلة ، ومعه ادرع خمس [3] : الفضفاضة ، والعنافية ، والمحصنة والخريق ، وام الذيول ، كن لبني آكل المرار يتوارثونها ملكاً عن ملك . فما لبثوا عند الحرث بن شهاب حتى بعث اليه المنذر مائة من رجاله يوعده بالحرب ان لم يسلم بني آكل المرار . فاسلمهم . ونجا امرؤ القيس مع بنته هند وابن عمه يزيد بن معاوية بن الحرث والادرع والسلاح. وظل شريداً يتنقل على امراء العرب كسعد بن ضباب والعلى بن تيم في بني جديلة ، واسياد بني

---

(١) الاغاني ٨ : ٧

(٢) de perceval , o p. cit. cit II , 311 الروائع ٧ الطبعة الثانية

(٣) وقد جعلها ابن قتيبة « مائة درع » الكتاب المذكور ، ص ٤٥

فزارة ، وبني نبهان ، وبني طي ، حيث تزوج ام جندب وطلقها كما سيأتي ، حتى سمي « بالملك الضليل » . وقد مرت عليه ، في تنقلاته هذه ، صروف عديدة . فكثيراً ماطمع فيه ذؤبان العرب ، وكثيراً ما تعرض للذل والسؤال . وقد انتهبت ابله في بني تبهان . فعوضوه منها عدداً من المعزى يتبلغ بحليبها . فقبل ذلك بشكر وتحمله بصبر ، قائلاً :

الا ! ان لم تكن ابلٌ ، فمعزى
كأن قرون جلتها العصي
اذ ما قام حالبها ، أرنت ،
كأن الحي بينهم نعيٌ
فتملأ بيتنا أقطاً وسمناً ؛
وحسبك من غنى شبع وريٌ [1]

واذ كان في بني فزارة قال له عمرو بن جابر بن مازن : « يا ابن حجر ، اني اراك في خلل من قومك ، وانا انفس بمثلك من اهل الشرف . وقد كدت بالامس تؤكل في دار طي . واهل البادية اهل برٌ لا اهل حصون تمنعهم . وبينك وبين اليمن ذؤبان من قيس . افلا ادلك الى بلد تلجأ اليه ؟ فقد جئت قيصر

[1] الاغاني ٨ : ٧١

وجئت النعمان ، فلم ار لضعيف نازل ولا لمجتهد مثله ولا مثل صاحبه !» قال : « من هو؟ واين منزله ؟ » قال : « السموأل بتيماء ... وفي حصن حصين وحسب كبير »[1]

عند السموأل

ثم صحبه عمرو مع رجل آخر من بني فزارة يقال له الربيع بن ضبع ، فاوصله هذا الى السموأل . فاجاره ما شاء . الى ان رحل الى بيزنطية كما سيأتي ، تاركا عنده ابنته وادرعه . فلم يسلمها هذا الا لورثته على الرغم من ان الحرث بن ابي شمر الغساني ، طالب الادرع بعد وفاة الشاعر ، هدد بقتل ابنه . ففضل السموأل ان يقتل ابنه على أن يخفر ذمته . وهذه الحادثة هي المشهورة « بوفاء السموأل » .

عند قيصر – فوز امرىء القيس

ولم يبق من شك اليوم ان امرء القيس ، اثناء تطوافه في البلاد العربية ، ارسل الى يوستنيانوس قيصر (٥٢٧ – ٥٦٥) وفداً يطلب منه النجدة على مناوئيه ، دفعه الى ذلك ما كان يعرفه عن العهد المقصود بين جده الحارث وانسطاس قيصر ،

---

(١) الاغاني ٨ : ٧٢

الامبراطور السابق، كما يفيدنا فوطيوس ناقل خبر سفارة نُنُوز الى الحبشة والحميريين وقبائل البادية[1]

وكان ليوستنيانوس سببان يحملانه على اجابة طلب امرىء القيس : اولهما كون الطالب نصرانياً ، ونحن نعلم من التواريخ ان يوستنيانوس كان من الغيُر على الدين ؛ وثانيهما ، وهو الاهم كما يظهر من قول بروكوب ، ان عدو امرىء القيس كان المنذر . والمنذر ، كما لا يخفى من عمال الاكاسرة ، منافسي القياصرة في بسط السيطرة على اطراف الجزيرة العربية »

فارسل يوستنيانوس ابراهيم ، والد ننوز المؤرخ المذكور ، « سفيراً الى امرىء القيس (وهو يدعوه قيساً) الذي كان يتولى امر قبيلتين عظيمتين هما كندة ومعد فعقد معه معاهدة ، واخذ ابنه معاوية الى بيزنطية ليبقى رهينة عند قيصر . »[2] ويذكر بروكوب سفيراً آخر يسميه يوليان جاء من قبل يوستنيانوس نفسه الى ملك الحبشة واامير الحميريين كي يحملها على أن « يجعلا امرء القيس (وهو يدعوه قيساً) وكان وقتئذ

---

(١) مجموعة مين الآباء اليونان Migne , P . G . Phitii Bi L . cIII. الروائع ٧ : الطبعة الثانية. Col. 46

(٢) Migne O P Cit . CIII , col. 446 - 47

ضليلاً هاربا من وطنه ، على ولاية معد . وان يضما قواهما الى قوى جيشه فيهجموا على بلاد الفرس . » ثم يزيد المؤرخ عن «قيس» هذا « انه كان احد رؤساء القبائل من نسل كريم وذا بطش في الحرب » وكان ذلك نحو السنة ٥٣١ .

على ان النجاشي لم يقم بما عهد اليه . فعاد امرؤ القيس الى مراسلة يوستنيانوس . فارسل اليه قيصر المؤرخ ننوز نفسه ، ثم اباه ابراهيم ، فحمله هذا الى بيزنطية نحو السنة ٥٣٣ . ويقول ننوز انه قبل ذهابه « قسم ولايته على القبائل بين اخويه يزيد وعمرو . » اما يزيد فهو ابن عمه معاوية ، لا اخوه . واما عمرو فلم نسمع به . فنال من الامبراطور امارة فلسطين » ، وهو امرٌ لا نعرفه الا بفضل ننوز .

رجوع امرىء القيس ـ وفاته (٥٤٠) ـ اسطورة الحلة المسمومة

على أن ننوز لا يشير بشيء الى ما تتناقله كتب الادب العربي من ان امرء القيس عرف ابنة قيصر وهام بها ، ونظم فيها الشعر ، وان قيصر علم بالامر ، بعد رحيل الشاعر من بلاطه فارسل اليه تلك الحلة المسمومة التي لم يكد يلبسها حتى تناثر لحمه ومات .

بيد أن المعروف امرء القيس بينما كان راجعاً من بيزنطية

اصيب ، في انقره ، بمرض كالجـــدري ، فتوفي هناك نحو السنة ٥٤٠ .

ولعل البثور والقروح الناتجة عن هذا المرض اثارت مخيلة رواة العرب ، فرأوا ان حادثة الحلة المسمومة اكثر تشويقاً واوفر شاعرية من هذا الموت الاعتيادي ، فألفوا تلك الاسطورة الجميلة ، وسمو الساعر « ذا القروح » .

وقبر امرؤ القيس في انقرة ، جنب امرأة من بنات الملوك مدفونة في سفح جبل اسمه « عسيب » ؛ على قول رواة العرب وهنا نرى تفنن الرواة ايضاً بذكرهم أن امرءالقيس ، لما حضرته الوفاة واخبر ان صاحبة هـــذا القبر بنت ملك ، قال البيتين الرقيقين المشهورين [١] . وجاء في مخطوط قديم ان قيصر لما بلغه موت امرىء القيس أمر بان ينحت له تمثـــال ، وينصب على ضريحه . وظل التمثال هناك الى ايام المأمون ، وقد شاهـــده الخليفة في اثناء غزوه بلاد الروم [٢]

دين امرىء القيس

بحث الكثيرون في دين امرىء القيس . وقد كانت حياة

---

(١) ابن قتيبة : ك . م٤٧ ، والاغاني ٨ : ٧٣ — ٧٤

(٢) الاب لويس شيخو : شعراء النصرانية ص ٣٥

الشاعر الخلاعية في اول عهده ، وتصرفاته المتناقضة في حياته من اتيان اعمال تشجبها الديانة المسيحية من جهة ، والقيام بامور يأتيها المسيحيون من جهة أخرى ، من اعظم أسباب العرقلة في تحديد دينه الحقيقي . ولهذا انقسم العلماء فرقاً فقال بعضهم : ان شاعرنا وثني يلتجىء الى الاصنام عند الحاجة . وقال آخرون لم يكن له من دين معروف ولم يكن ليهتم بهذه الامور . وزعم الاب انستاس الكرملي انه كان على دين المزدكية المتسرب عن الفرس [1] . على أن القول الفصل في هذا الجدال يعود ، على ما نرى ، الى رأي الاب شيخو الذي قتل المسألة درساً في مقال ممتع ، فاستخلص أن امرء القيس كان من احدى البدع النصرانية ، وان لم يكن يمارس هذه الديانة . ولذلك اسباب منها :

١ – ابطال مزاعم القائلين بوثنيته ومزدكيته .

٢ – خلو شعره من اثر الشرك .

٣ – اقراره بوحدانية الخالق في شعره .

---

(١) الاب انستاس الكرملي : دين امرىء القيس الشاعر الجاهلي (المشرق ٨ (١٩٠٥ ٨٨٦)

٤ – ذكره للشيء الكثير من الامور النصرانية .

٥ – انتشار النصرانية في كندة ، وهي قبيلة الشاعر .

٦ – نصرانية آله الظاهره في آثار عمته هند بنت الحرث المعروفة بهند الكبرى التي بنت دير هند ووضعت في صدره هذه الكتابة : « بنت هذه البيعة هند بنت الحرث بن عمرو... امة المسيح وام عبده وبنت عبيده .

٧ – خروج امرىء القيس الى قيصر ، وهو امر لم يكن يخطر على بال احد من العرب الوثنيين .

٨ – ما كتبه المؤرخان نتوز وبروكوب عن علاقات يوستنيانوس بامرىء القيس [1]

آثاره

الديوان – طبعاته وشرحه

لعل امرىء القيس اول شاعر جاهلي نسبت اليه الاشعار بكثرة ، وفي مختلف الفنون . وقد جمعت اقواله من امد بعيد فظهرت اما على حدة او مع شعر غيره من الجاهليين . وكانت الطبعة الاولى لديوانه ، ما خلا المعلقة ، في باريس سنة ١٨٣٧

(١) الاب لويس شيخو : مزدكية امرىء القيس الشاعر الجاهلي (المشرق ٨ (١٩٠٥) ٩٩٨ – ١٠٠٦)

عني بها المستشرق الشهير البارون دي سلان Deslame ، فقدم على قصائد امرىء القيس بحثاً طويلاً باللغة الفرنسية اردفه بتاريخ الشاعر المقتطف من كتاب الاغاني ، ثم نشر الديوان مع ترجمته الى اللاتينية . وطبع الديوان ايضاً في مصر مع شرحه للبطليوسي سنة ١٨٨٢ هـ . (١٨٦٥) وفي مصر ايضاً سنة ١٣٠٨ هـ . (١٨٩٠) مع شرحه للوزير ابي بكر ابن عاصم . وطبع مؤخراً في مصر ايضاً سنة ١٩٣٠ . وفي السنة ١٨٩٠ ، ظهر اول قسم من كتاب شعراء النصرانية للاب لويس شيخو اليسوعي وباوله بحث واسع في شاعرنا .مع مجموعة شعره .

واكثر هذا في الوصف يتناول به مجمل ما يظهر في حياة البدوي عامة ، وما يكتنف امرء القيس خاصة ، وهو كما رأينا في حياته ، امير يحب اللهو والصيد والمغامرة في حوادث الغرام ، ثم بطل متشرد ينشد عرش ابيه والأخذ بثأره . فنرى اذن في شعره ، من جهة وصف الملاهي وايام الصيد والخيول والجمال ، ومن جهة اخرى تهديده لقاتلي ابيه وذكر اسفاره المتعددة ،

على أن اشهر ما في هذه المجموعة من القصائد المعلقة ، وهي

الاولى بين المعلقات ، فتستحق درساً خاصاً .

الوصف في شعره

نصوص مختارة

وصف الأطلال :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل [1]

فتوضح فالمعراة لم يعف رسمُها
لما نسجتها من جنوب وشمأل [2]

ترى بعر الآرام في عرصاتها
وقيعانها كأنه حب فلفل [3]

---

(١) قفا : يخاطب رفيقيه . ذكرى : تذكر . سقط اللوى : منقطع الرمل . الدخول وحومل : موضعان .

(٢) توضح والمعراة : موضعان ، وهذه المواضع الاربعة ما بين امرة الى اسود العين واسود العين جبل . منازل كلاب . لم يعف رسمها . لم يمح اثرها . نسجت الريح : اسقت الرمل ، الجنوب والشمال : ريحان متضادان تهب الاولى من الجنوب وتهب الاخرى من الشمال .

(٣) الآرام : جمع رئم ، وهو الظبي الابيض الخالص البياض والآرام مقلوب آرام . عرصاتها : ساحاتها مفردها عرصة . القيعان : جمع قاع وهي الارض المستويه لا بناء فيها .

كأني غداة البين يوم تحملوا
لدى سمرات الحي ناقف حنظل [1]

وقوفاً بها صحبي علي مطيهم
يقولون : لا تهلك أسى وتجمل [2]

وإن شفائي عبرة مهراقة
فهل عند رسم دارس من معول [3]

وصف الليل :

وليل كموج البحر ارخى سدوله

---

(١) غداة البين : صبيحة الفراق . يوم تحملوا : يوم ارتحلوا . لدى سمرات الحي : عند اشجار الطلح لاهل حي . ناقف حنظل : جاني حنظل ، والناقف هو الذي يستخرج الحب .

(٢) صحبي : جمع صاحبي اصحابي . مطيهم : ابلهم . اسى : حزناً . تجمل : تزين بالصبر .

(٣) عبرة : دمعة . مهراقة مسالة ، ومهراقة لغة بني اسد يقولون بدل اراق هراق . رسم دارس . اثر زائل . من معول . من معتمد او من اعماد

علي ، بانواع الهموم ، ليبتلي [1]

فقلت له ، لما تمطى بصلبه ،

واردف اعجازاً ، وناءَ بكلكلِ [2]

الا ايها الليل الطويل ، الا انجلي

بصبح وما الأصباح منك بامثل [3]

فيالك من ليل ، كأن نجومه

بامراس كتان الى صمّ جندل [4]

يُزلُ الغلام الخف عن صهواته ،

ويلوي باثواب العنيف المثقل [5]

درير كخذوف الوليد ، امره

---

(١) السدول ، جمع سدل ، وهو الستر . ليبتلي ، ليختبر .

(٢) تمطى ، تمدد . الصلب ، الظهر . اردف ، اتبع . الاعجاز ، جمع عجز وهو المؤخر . . ناء مقلوب مقلوب نأى ، بعد . الكلكل ، الصدر .

(٣) الامثل ، الافضل .

(٤) الامراس ، جمع المرس وهو الحبل . الصم ، جمع الاصم وهو الصلب الجندل ، الصخر .

(٥) الصهوات ، جمع الصهوة ، مقعد الفارس من ظهر الفرس . العنيف ، ضد الرفيق .

تتابُعُ كفيه بخيط موصـــل [1]
له ايطلا ظبي ، وساقا نعامـــة
وارخاء سرحان،وتقريب تتفل [2]
ضليع اذا استدبرته ، سد فرجه
بضاف،فويق الارض ليس باعزل [3]
كان على المتنين منه ، اذا انتحى،
مداك عروس او صلاية حنظل [4]
كان دماء الهاديات منجره
عصارة حنابر بشيب مرجل [5]

---

(١) الدرير ، بمعنى اسم الفاعـــل من الدر ، صفة للفرس الذي يدر الجري اي يديمه ، ويتابعه ، ويواصله ، ويسرع فيه . الخـــذروف ، آلة مستديرة من جلد او خشب .

(٢) الايطل ، الخاصرة ، جمعها اياطل . الارخاء ، ضرب مـــن عدو الذئب يشبه جنب الدواب . السرحان ، الذئب . التقريب ، ضرب من العدو يكون بوضع الرجلين موضع اليدين . التتفل ، ولد الثعلب .

(٣) الضليع ، العظيم الاضلاع . الاستبداد . النظر الى الشيء من مؤخره الفرج الفضاء بين اليدين والرجلين . طويل سابغ ، نعت لمحذوف تقديره ذيل . الاعزل ، الذي يميل عظم ذنبه الى احد الجنبين .

(٤) المتنان ، ما عن يمين الفقار وشماله . الانتحاء ، الاعتماد المداك ، الحجر الذي يسحق به الطيب . الصلاية ، الحجر الاملس الذي يسحق عليه شيء .

(٥) الهاديات المتقدمات الرجل ، من الشعر المسرح .

فعنَّ لنا سربٌ ، كأن نعاجَه
عذارى دوار في ملاء مذيل [1]
فادبرن كالجزع ، المفصل بينه
بجيد مقمّ ، في العشيرة ، مخـــول [2]
فالحقنـــا بالهاديات ، ودونه
جواحرها ، في صرة لم تزيـل [3]
فعادى عـــداء بين ثور ونعجة
دراكا ، ولم ينضح بماء فيغسل [4]
فظل طهاة اللحم من بين منضج
صفيف شواء ، او قدير معجل [5]

---

(١) عن ، عرض ، ظهر . سرب ، قطيـع . النعاج ، اناث الضأن وبقر الوحش وهذا هو المراد . الدوار ، حجر كان عرب الجاهلية ينصبونه فيطوفون حوله تشبها بالطائفين حول الكعبة .
الملاء ، ملاءة . المذيل ، الطويل الذيل .
(٢) الجزع ، الخرز اليماني . الجيـد ، العنق . المعم ، المخول ، الكريم الاعمال والاخوال
(٣) الجواحر ، المتخلفات . الصرة ، الجماعة . التزيل ، المفترق
(٤) العداء ، الموالاة . الدراك ، المتابعة .
(٥) الطهاة ، جمع الطاهي ، الطابخ . الصفيف ، اللحم المصفوف على الحجارة القدير ، اللحم المطبوخ في القدر .

ورحنا يكاد الطرف يقصر دونه

متى ما ترقَّ العين فيه تسهل [1]

فبات عليه سرجه ولجامه ،

وبات بعيني قائماً ، غير مرسل [2]

وصف البرق

اصاح ترى برقاً أريك وميضه

كلمع اليدين ، في حبي مكلل [3]

يضيء سناه ، او مصابيح راهب

امال سليطاً بالذبال المفتل [4]

---

(١) الترقي ، الارتفاع (٢) غير مرسل ، غير مرسل الى المرعى

(٣) الحبي ، السحاب المتراكم سمي كذلك لانه حبا بعضه على بعض فتراكم المكلل ، نعته بذلك لانه صار اعلاه كالاكليل لاسفله

لمع اليدين ، اي اريك وميض هذا البرق في السحاب المتراكم يلمع كتحريك اليدين

(٤) السليط ، الزيت . الذبال ، جمع ذبالة وهي الفتيلة .

وصف السحاب والبرق والغيث :

ديمة هطلاء فيهـــا وطف
طبق الأرض تحرى وتدر [1]
تخرج الود اذا مـا أشجذت
وتواريه إذا ما تشتكر [2]
وترى الضب خفيفاً ماهراً
ثانيا برثنه مـــا ينعفر [3]
وترى الشجراء في ريعتهـــا
كرءوس قطفت فيها خمر [4]

---

(١) الديمة ، المطر يدوم في سكون دون رعـــد ولا برق . الوطف ، استرخاء السحابة . تحرى ، تتحري المكان وتثبت فيه . تدر ، تمتلىء .

(٢) الود ، اسم جبل . اشجذت ، اقلعت وسكنت . تواريه ، تخفيه . تشتكر ، تهطل بالمطر وفي رواية تعتكر

(٣) الضب ، حيوان زاحف يشبه الجرذون . البرثن ، المخلب . مـــا ينعفر ، لا يصيبه العفر وهو التراب .

(٤) الشجراء ، الارض ذات الشجر . ريقها ، أولها . خمر ، جمع خمار ، وهو للمرأة كالعمامة للرجل .

ساعة ، ثم انتحاها وابـــل

ساقط الاكناف ، واه ، منهمر [1] .

راح تمريه الصبا ، ثم انتحى

فيه شؤبوب جنوب منفجر [2]

شج حتى ضاق عـــن آذيه

عرض حيم ، فخفاف ، فيسر [3]

---

(١) انتحاها : قصدها . وابل : مطر شديـــد يصدر عنه السيل . ساقط الاكناف : ثابت النواحي . واه : ضعيف يتشقق منه الماء ، وينخرق عنـــه المطر . منهمر : شديد الانصباب .

(٢) راح : سار عشيا . تمريه : تندره . واصله مـــن مرى الضرع اذا مسحه ليدر . الصبا : ريح باردة تهب من الشمال ، شؤبوب : دفعة من المطر الجنوب : ريح تهب من الجنوب .

(٣) شج : سال وصب . آذيه : موجه . عرض ناحية او اتساع خيم وخفاف ويسر : اسماء امكنة قريبة من الدهناء ، او في بلاد بني يربوع .

وصف الحمار الوحشي :

كأني ورجلي فـــوق أحقب قارح
بشربـــه أوطاو بعرنان موجس [1]
تعشى قليلًا ، ثم انحى ظلوفـــه
يثير التراب عن بيب ومكنس [2]
يهيل ويـذري تربهـــا ويثيرها
اثارة نباش الهـواجر مخمس [3]
فبات على خد أحم ومنكب
وضجعته مثل الأسير المكردس [4]

---

(١) الاحقب : الحمار الوحشي الابيض مكان الحقيبة . القارح : الذي شق نابه . شربة : اسم عين ماء . طاو ، جائع غرثان . بعرنان ، عرنان ، اسم جبل . موجس ، حذر ، خائف .

(٢) انحى ظلوفه ، عدل اظافره استعداداً للنبش . يثير ، يسفى الكناس والمسكن (٣) يهيل ، يسقط . يذرى ، يطير ويثير . نباش الهـواجر ، النباش في اوقات الظهيرة وهذا الوصف يغلب الضبيعة . مخمس ، خامس خمسة .

(٤) احم ، اسود او ابيض فهو من اسماء الاضداد ، والوصف بالبياض هو المراد . اذ وصفه باول بيت بانه احقب. المنكب، مجتمع الكتفين .المكردس، المقيد .

وبات الى أرطاة حقف كأنهـــا
اذا الثقتها غبية بيت معرس [1]
فصبحه عنـــد الشروق غدية
كلاب ابن مراو كلاب ابن سبنس [2]
مغرثة زرقاً كأن عيونها
من الذمر والايحاء نوار عضرس [3]
فأدبر يكسوها الرغام كانهـا
على الصمد والاكام جذوة مقبس [4]

---

(١) الى ارطاة ، الى جانب شجرة ارطاة . وثمر هذا الشجر يشبه العناب الحقف ، الرمل المجتمع . الثقتها : بللتها ولذتها . غبية ، الغبية الدفعة الشديدة من المطر . المعرس ، المتخذ له عرسا .

(٢) فصبحه ، جاءه عند الصباح . غدية ، تصغير غدوة . ابن مـــروا بن سبنس . صيادان ماهران من قبيله طيء .

(٣) مغرثة ، مجاعة لتكون اشد فتكا ، واقوى عدوا . الذمر ، الاثارة واللوم والتحريض . الايحاء ، الايماء . والاشارة . نوار ، زهر النبات العضرس شجر له نور احمر .

(٤) فأدبر ، فرجع . يكسوها الرغام ، يغطيها الغبار . الصمد ، المكان المرتفع . الاكام ، جمع اكمة وهي كالصمد في المعنى . جذوة . شعلة . مقبس طالب قبس من نار .

وأيقن إن لا قينه ان يومه
بذي الرمث إن ماوتنه يوم أنفس[1]

فأدركنه يأخذن بالساق والنسا
كما شبرق الولدان ثوب المقدس[2]

وغورن في ظل الفضا وتركنه
كقرم الهجان الغادر المتشمس[3]

---

(١) ايقن : وثقن . بذي الرمث : كناية عن مكان به من شجر الرمث الكثير . ماوتنه : صابرنه وجالدنه حتى الموت . يوم انفس : يوم زهاق انفس

(٢) يأخذن : يعنفن الساق : ما بين الكعب والركبة . النسا : عرق من الورك الى الكعب . شبرق : مزق . الولدان ، الغلمان . المقدس ، الرجل المطهر نفسه من الادناس .

(٣) غورن ، سرن في الارض المنحدرة ، كقرم الهجان ، كالفحل الكريم الغادر ، الناقة المنفردة . المتشمس ، الشموس النفور .

وصف حرب ناشبة بين عقاب وذئب :

كأنها حين فاض الماء واحتملت

فتخاء لاح لها بالفقرة الذّيب[1]

فأبصرت شخصه من فوق مرقبة

ودون موقعها منه شناخيب[2]

فأقبلت نحوه في الجو كاسرة

يحثها من هوى اللوح تصويب[3]

صبت عليه ولم تنصب من امم

إن الشقاء على الاشقين مصبوب[4]

كأنها ، الضمير يعود على الفرس التي كان يصفها قبلا . الاحتمال ، الانتقال فتخاء ، لينة الجناحين عريضتها .

(٢) المرقبة : المكان المرتفع يعلوه الرقيب . الشناخيب ، مفردها شنخاب او شنخوب ، اعلى الجبل .

(٣) كاسرة ، منقضة تكسر جناحيها . يحثها يدفعها . هوى ، سقوط . اللوح ، بضم اللام الهواء بين السماء والارض . لصويب ، انحدار .

(٤) صبت عليه . اندفعت اليه . من امم ، من قرب .

كالدلو بتت عراهـــا ، وهي مثقلة
اذ خانها وذم منهـــا وتكريب [1]
لا كالتي في هواء الجـــو طالبة
ولا كهذا الذي في الارض مطلوب [2]
كالـــبرق والريح مرآتاهما عجب
ما في اجتهاد على الاصرار تغبيب [3]
فأدركته ، فنالته مخالبهـــا
فانسل من تحتها ، والدف مثقوب [4]

---

(١) بتت عراها ، قطعت مقابضها . وهي جمع عروة . مثقلة ، ممتلئة ثقيلة. الوذم ، سيور بين آذان الدلو ، ويجمع على وذوم ، وأوذام . واوذم التكريب جعل الكرب وهو الحبل في الدلو .

(٢) كالتي في هراء الجو ، كناية عن العقاب ، طالبة ، باغية صيداً وحربا كهذا ، اسم الاشارة عائد على الذيب . مطلوب ، مرغوب صيده .

(٣) كالبرق ، يقصد العقاب . الريح ، يقصد الذئب . مرآتاهما تثنية مرآه بمعنى منظراهما . عجب ، عجيب ، غريب . التغبيب ، التقصير .

(٤) مخالبها ، جمع مخلب اظفارها . فانسل ، فنزع نفسه برفق . الـــدف مثقوب ، الجنب منقوب .

يلوذ بالصخر منها بعد مـــا فترت
منها ومنه عـــلى الصخر الشآبيب [1]
ثم استغاثت بمتن الارض تعفره
وباللسان وبالشدقين تتريب [2]
مـــا أخطأته المنايا قيس انمـــلة
ولا تحرز الا وهـــو مكتوب [3]
يظل منجحراً منهـــا يراقبهـــا
ويرقب الليل ان الليـــل محبوب [4]

---

(١) يلوذ ، يلجأ ويحتمي . فترت ، تراخت . منها ومنه :من العقاب والذئب الشآبيب ، جمع شؤبوب ، يريد شدة الدفاع كل منهما .

(٢) استغاثت ، استعانت والضمير يعود على العقاب . تتريب ، تراكم التراب فوق الشيء .

(٣) المنايا ، جمع منية ، وهي الموت قيس ، مثل قيد يعني قـــدر انملة ، والانملة ، رأس الاصبع . تحرز ، تحصن . مكتوب ، مكرور عليه ، مهجوم نحوه من كتب اذا كر .

(٥) يظل يبقى طوال يومه . منجحراً ، مختبئا في الجحر يراقبها ، يلاحظها يرقب الليل ، ينتظره محبوب ، مرغوب فيه لانه منقذ له .

وصف الحرب وسوء عواقبها :

الحرب اول ما تكون فتية
تبدو بزينتها لكل جهول
حتى اذا حميت وشب ضرامها
عادت عجوزاً غير ذات خليل
شمطاء جزت شعرها وتنكرت
مكروهة بالاثم والتقبيل

وقف شاعرنا واستوقف وبكى واستبكى ثم قال : « ايها الخليلان الوفيان ، قفا فأسعداني بالبكاء ، من تذكر حبيب عزيز علي ، ومنزل كريم لدي ، لقد تذكرت حبيباً تساقينا معا افاويق الهوى ، ومنزلا تبادلنا فيه اسباب اللهو ، ذلك المنزل الكريم عند منقطع الرمل بين الدخول ، وحومل ، وتوضح والمقراة . تلك الدار لم ينمح اثرها ، ولم يعف رسمها لنسيج الرياح السافيات فحسب ، ولكنها انمحت لمر الدهور ، وعفت لكر الايام ، ترى في مكان تلك الدار بعر الظباء الصافية البياض يملأ عرصاتها ، كأنه في سواد لونه ، واستدارة شكله ، وصغر حجمه حب الفلفل .

كأني صبيحة احتمالهم وغداة ارتحالهم عند شجر الطلح الذي يستنبته اهل الحي أنقف الحنظل ، واستخرج منه حبة ، فتسيل مآقي ، وتجري عبراتي ، لقد وقف أخلاي مطاياهم على تلك الدار يشاركونني في أساي ، ويسلونني عن وجدي ، قائلين : صبراً وجلداً ، وتحملا وتجملا ، لا يهلكك الأسى ، ولا يقض عليك الوجد ، وتجمل بالصبر وتحل بالجلد .

ان دوائي مما الاقي من وجد دمعة تراق . وشفائي مما اجد

من اسى عبرة نصب ، ومع ذلك فما جدوى البكاء على الرسوم وما فائدة اراقة الدموع على الاطلال ؟

وما ان انتهى من وصف الاطلال حتى راح يصف الليل فقال شاكيا من ليله الذي طال امده ، فزداد عليه الالم فيه : « رب ليل كموج البحر المتلاطم اسدل علي ظلمته ، وبسط فوقي وحشته ، وارسل الي الواناً من الهموم ، واسدل علي انواعاً من الاحزان ، ، ليختبر منتي ويمتحن قواي ، ويتبين جلدي وصبري ، فقلت له وقد رأى مني صبراً وعزماً ، وقوة ومنة.

ايها الليل الطويل اتمنى عليك بعد ان عرفت عزيمتي ان ينفلق صبحك ، وينكشف ضوءك ، وان تزول غياهبك ، وتنهتك استارك ، وان يكن ذلك الصبح المأمول ليس باوضح منك وجها ، ولا بامثل منك حسناً ، فكلا كما مبعث هم ، ومصدر غم و كرب ، ولكنه التغيير قد يشعر ببعض الراحة .

ما اعجبك ليلا ثابتاً لا يتزحزح ! راسخاً لا يتزعزع ، حتى لكأن نجومه السائرات شدت الى رأس من الجبال بمغار الفتل من الامراس والحبال ، فليس لها مسير وان طال بها الامد .

وانتقل بعد ذلك الى وصف الفرس وراح يتغنى بمحاسن

جواده فقال : « قد اغدو بكرة مرحاً نشيطاً ، واي نشاط او فر من نشاط اسبق به رمز النشاط ، اسبق به الطيور التي لا تزال في وكراتها لماتصح لتشقشق وتغرد ، اغدو معتلياً صهوة جواد كريم ، قد انحسر شعره لوفرة سمنه ، جواد ماض لا يقف في طريقه كائن حتى انه ليقيد بسرعته الوحوش الآبدة ، فما تستطيع حراكا وهو الفرس النهد العظيم ، المكر فلا يسبق ، المفر فلا يلحق ، المقبل حين تريد اقبالاً فلا يصد ، المدبر اذا رغبت في ادباره فلا يرد ، وهذه الصفات متجمعة في قوته ، لا أنه يأتيها جميعها ، كأنه في سرعته وصلابته حجر عظيم أسقطه السيل الزاحف ، من السمو الى الهوى ، هذا الفرس الكميت الضخم الجسم ، المكتنز اللحم ، حتى ليسقط اللبد عن أوسط ظهره سقوط الصخرة الملساء بالمطر الهاطل ، وهو ضامر ذابل كثير الجيشان ، حتى لتخال تكسر صوته اذا حمى في عدوه جيشان الماء في الرجل .

يصب هذا الجواد عدوه صبا ، فيأتي بأفانين تتيح له السبق في الوقت الذي ادرك الجياد السابحات الونى والكلال ، ويبدو ذلك الاعياء من انها تثير في الارض الصلبة الغبار ، يزلق الغلام النحيف الخفيف الذي لم يدرب على الفروسية عن صهوته ،

ويرمى بأثواب الفارس العنيف الماهر الشديد في جهات ثلاث ، يرمى بها الى اعلى والى شمال والى يمين ، وهو يستدر عدوه ، ويوالي جريه كما تدر ذوات اللجن ضرعها ادراراً متتابعاً او هو في تتابع أفانين سبقه كخذروف الصبي أحكم فتل خيطه ، وتتابعت كفاه في ادارته بخيط قطع ثم وصل ، فهو كالخذروف يبدأ هادئاً ، ثم يشتد شيئاً فشيئاً بين انبساط وانقباض .

ترى لذلك الفرس النهد خاصرتي ظبي ، وساقي نعامة قصيرتين صلبتين ، وسيرا كسير الذئب ليس بالشديد ولا البطىء ، وتقريباً في سيره بين قوائمه كما يفعل ولد الثعلب عندما يسرع اذ تقع قدماه الخلفيتان مكان قدميه الأماميتين ، فهو قد أخذ من كل حيوان اجمل ما يتصف به ، فأخذ من الظبي خصره الضامر ، ومن النعامة ساقها القصيرة الصلبة ، ومن الذئب سيره المرخى ، ومن التتفل تقريب قوائمه في سيرها .

وهو مع ضمور خصره عظيم الاضلاع ، ممتلىء الجنبين ، اذا تأملته مستدبراً رأيته يسد الفضاء الذي بين قائمتيه بذنبه الضافي السابغ الذي يكاد يصل الارض ، في استقامة واستواء ، كأن ظهره الاملس حينما ينزع عنه سرجه قائماً امام البيت في صفائه وملاسته مداك عروس او صلابة حنظل ، واختياره مداك

العروس ؛ لأنه دائم الطيب ، وصلاية الحنظل لانه يسيل منها دهن فتلمع جوانب الصلاية وتبرق ، وكذلك جلد الفرس فيه نصاعة وصفاء ، ولمعان وبريق .

هذا الفرس يقيد الأوابد ، ويدرك الهاديات الشوارد ، وفارسه حينئذ يطعنها طعنة عميقة يتدفق منها الدم غزيراً ، فيضرج سخر ذلك الفرس الكريم ، فاذا هو كالشيب الرجل بالحناء ، لقد عرض لنا قطيع من البقر الوحشي هو آية الجمال وعنوان الحسن ، فظهورها بيض ناصع ، وقوائمها سود حوالك يشبهن فتيات عذراوات ، يملك صفاء بشرتهن القلوب ، وقد اسبغن على ارجلهن ملاء سودا ذوات اذيال سايغة ، ويختلن اختيال اولئك العذارى اذ يدرن حوله يقدسنه ويعظمنه ، واذهن في تلك الحال الملأى باسباب المسرة بدون لهن ففزعن اعظم الفزع ، وأدبرن متفرقات وكن من حين متجمعات مختالات فبدون في تفرقهن كالجزع سائره ابيض وأطرافه سود ، وقد فصل بعضه عن بعض بجوهر كريم ، يزدان به عنق غلام نبيل ، فهو كريم الاعمام والأخوال ، ولكن تفرقهن لم يفتهن شيئا ؛ اذ الحقنا الجواد الكريم بالسوابق منهن ، وترك من خلفه الجواحر المتخلفات ، فاراد كه للاوائل كفيل باقتناص الاواخر .

وهي اذ تفرقت تفرقت جماعات ، فعادى بينها عـــداء ، ووالى الجري موالاة ، بين ثيران ونعاج ، فأدركهن لم يجهده الادراك ، ولا اشقاه العـــدو ، فلم يسل منه عرق ، فيغسل جسمه .

ثم وصف البرق فشبه لمعانه وضوءه وتحركه بضوء مصباح الراهب اذا صب الزيت في سراجه فحرك الفتائل ، فتمايل النور في حنايا المعبد المظلمة — وفي الشطر الثاني قلب اصله : امـــال الذبال بالسليط . ثم وصف السحاب والبرق والغيث في قصيدة غير المعلقة ، فقال : « هذه مطرة دائمة التسكاب » ومزنـــة ماضية الانصباب ، غايتها ملء اطباق الأرض بدموعها الغزار ، فترى اوتاد الاخبية بادية ظاهرة عندما تقلع عن السكب وخافية متوارية عندما يحتفل المطر ، ويشتد الغيث ، فهي تبدو اذا هدأت ، وتتوارى اذا غضبت ، وترى الصنب ، وقد ابرزه المطر مـــن حجره سابحاً ماهراً ، خفيفاً نشيطاً ، يثني برثنه ويبسطه ، كما يثني السابح ذراعه ويمده ، فلا ينعفر بالتراب ، فقد اذهبه طول الانسكاب ، وترى الارض ذات الاشجار ، وقد غطاها المطر اول دفعاته ، فليس يبدو منها الا رؤوس أشجارها ، فظهرت وقد علاها الزبل كرؤوس انفصلت عن

أعناقها ، وغطتها خمرها ، استمر هذا الغيث ساعة ،ثم اعتمدها وابل منهمر ، وسيل منحدر ، يعم نواحيها ، ويفصم أكنافها فالسحاب متشقق بالماء .

راح ذلك السحاب عشيا – وقـــد استدرته ريح الصبا ، ومراه بردها – راح يتكانف ويتراكم ثم قصدته ريح الجنوب وافدة من بحر الهند مثقلة بالقطار ، فاضافت اليه دفعة أخرى فاذا هو ينصب انصباباً حتى ضاق عن آذيه المضطرب وموجه المصطخب عرض هذه الجهات مع اتساع آفاقهـــا ، وامتداد اكنافها .

وقال يصف حمار الوحش في قصيدة اخرى فشبه ناقته من فوقها رحله بالحمار الوحشي الفتي ، ثم انصرف عنها اليه ، فهو ممتلىء نشاطاً وعراماً لانه قارح ، او لانه طاوي الكشح ، او لانه قارح طاوي الكشح معا ، وهو قبالة عين ماء ، او فوق جبل متباعد الأنحاء ، انه هنا وهناك ، لانه لا يسكن ولا يهدأ فهو خائف متوجس ، حذر متربص ، لم ينل من الطعام في امسيته ما يسد جوعته ، او يمسك صلبه ، انه جامع أظلافه يهيل بها التراب ، كأنه يبحث عن مكنس او مسكن ، مثله اذيهيل الثرى ويذريه كمثل الضباع تنبش التراب ساعة الظهيرة ، فاذا

هيأ له مناماً هدأ عزمه ، وفتر نشاطه ، ونام على خد ومنكب ابيضين ، وهو في ضجعته الهادئة كالاسير العتيد لا يبدي حركة ولا يحدث ضجيجاً .

قد اتخذ كناسه الى شجرة تجمع حولها الرمل ، فكأنها اذا بللتها دفعة من المطر ، او ندتها مزنة من سحاب ، بيت رجل أعرس ، فهو هادىء ساكن ، ولكنه اذ ينفجر العجز ، ويتنفس الصبح تصبحة كلاب معزاة على الصيد كأنها في ضرواتها ودربتها كلاب « ابن مر او كلاب ابن سنبس » .

وهي الى هذه الضراوة مغرثة مجاعة ، لتكون اشد فتكا واقوى عراما ، فعيونها لقسوة ذمرها وحرضها ، وشدة ثورانها وهياجها حمراء مشتعلة كأنها نوار عضرس .

رأى الحمار هذا الكلاب يذمر كلابه ، فشد يخلف من ورائه سحابا من الغبار ، يكسو هذه الكلاب فكأنه — اذ يعلو الأصماد والآكام ، ويرتفع الى الربا والنجاد ، ويختلط الغبار المتطاير ببياضها ، فتغير لونها — جذوة من نار .

وكلما ايقن انه ان لاقى هذه الكلاب في وادي الرمث ، فان نفوسا ستهلك ، ودماء ستهرق ، قد تكون نفسه احداها وقد يكون دمه هو الدم المهراق سابق الريح ، وامعن في شدة

لا يبقي من عدوه على شيء .

ثم انه يتصور أنها ان ادركته فستأخذ بساقيه ووركيه فتمزقها تمزيقاً ، تمزيق الغلمان الأغرار الفين الراهب المطهر ذا التقوى والبركات آئبا من بيت المقدس ، فهم يتبركون به ، فيمزقون ثيابه التماساً للبركة ، وطلبا للمغفرة .

هذه الكلاب انحدرت الى ظل أشجار الغضا بعد ان يئسن من لحاقه ، وأيقن عدم القدرة على ادراكه ، وتركنه قوياً نشيطاً لم يمسه نصب او لغوب ، فهو كالفحل الهجان ، المنفرد في حظيرته ، الشموس لا يقوى أحد على مواجهته .

ثم وصف حرباً ناشبة بين عقاب وذئب في ابيات بائيه يشك النقاد في نسبتها اليه الا ان خصائصها تنطبق على خصائص شعره فوصف فرسه بانها عند انهيار الماء ، وانحدار الشد ، وانضمام الحصر ، ولحوب المتن كالعقاب ظهر لها في الارض القفر ذئب ، ثم تأكد رؤيتها اياه بعد أن تأملته من قمة لا يحجب الناظر منها حاجب ، ولكن بينها وبينه ربا ونجادا ، فلم تخش قطعها ، بل اقبلت نحوه منقضة ، تكسر في انقضاضها اليه جناحيها ليشتد طيرانها ، يضاعف هويها في ذلك الجو أنهـــا تنقض منحدرة ، اندفعت اليه من مكان بعيد ، وهوت عليه من مرقب سحيق

لتنزل عليه سخطها ، وتنشب فيه مخالبها ، فما اشقاه ! ان الشقاء ليفد عليه من حيث يدري ولا يدري ، وحقا : « ان الشقاء على الاشقين مصبوب » او « ان الشقي بالشقاء مولع » .

هوت عليه قوية دافقة ، وانصبت نحوه عازمة عارمة ، كأنها الدلو المثقلة بالماء قد انبتت عراها ، وخانها ذمها وتكريبها فسقطت كجلمود الصخر ، ليس كهذه التي تهوي من الجو تطلب صيدا في قوتها وعرامها طالب ، ولا كذلك الذي يرخي فوق الارض خوف ذلك الطالب مطلوب .

ما اشبه الطالب والمطلوب بالبرق والريح ، فالريح يعصف من ورائه البرق يلمع ، فمنظراهما عجيب ومرآتاهما غريبة ، اذ كلاهما يصر على الاجتهاد دون تقصير فيه ، ويعزم على امر لا يحيد عنه ، هي تعزم على الفتك ، وهو يصر على الخلاص منها ، فما في عزميهما تغبيب .

ولكنها انفذت اصرارها ، وادركت ما عزمت عليه ، فنالته مخالبها ، وانشبت فيه أظافيرها ، ولكنه استطاع أن ينسل من تحتها ، وان يتخلص من براثنها ، وقد نقب جنبه ، وثقب دفه ، واخذ يلجأ الى الصخور يختبىء تحتها ليحتمي بها منها ، وكان الصراع قد ثبط من همتيهما ، والنضال قد اوهى

من قوتيهما ، فانتقل الهجوم والدفاع ، والكر والفر فوق ذلك الصخر الذي لجأ اليه ، ولاذ به ، فلجأ الى غير الصخر ؟ فاستعان بمتن الارض يثير غباره ويهيج عفره ليحجب بذلك التراب عن العقاب شخصه ، فترب لسانه وشدقيه ، دون أن تخطئه المنايا ، او يغلط الموت في معرفة مكانه ، لم يخطىء الموت قيد أنملة ، ولا نفعه التحرز والتحصن وهي كارة عليه ، مندفعة اليه ، فهو يظل يومه مختفياً في الاحجار ، مختبئاً بين الصخور ، مترقباً الليل المحبوب ليحميه من ذلك العدو الجبار .

وقال يصف الحرب وسوء عواقبهـــا : « الحرب في اول امرها شابة فتية ، فيها حسن وخلابة وفتنة ، لانها تومي بالظفر والنصر وطيب الاحدوثة حتى اذا وقع الناس في لهيبها وحمي وطيسها واشتعل ضرامها ظهرت على حقيقتها عجوزاً نكراء لا تبقى على خليل ، ولا تحتفظ بخليل ، وكيف ذاك ؛ وهي تتخذ منهم غذاءها ، فدماؤهم شرابها ، ولحومهم طعامها ، انها تبدو شمطاء شوهاء ، قبيحة المنظر ، دميمة المرأى ، قد جزت شعرها فزادها ذلك نكرا ، وتنكرت لمن كانت تزعمهم اصدقائها فعادت مكروهة للثم والتقبيل .

اجمع النقاد على ان هذه القصيدة اروع ما قال الجاهليون كما عدوا مطلعها اروع مطالع الشعر العربي ، قالوا عن امرىء القيس : « انه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر الحبيب والمنزل في شطر واحد في مطلع معلقته ، وهذا ما يعجز جميع فحول الشعر ، وقد حدد الشاعر دار الحبوبة تحديداً جغرافيا دقيقا ؛ لأن قلبه معلق بها ، فكيف ينسى دارها ؟

ثم صور آرامها وبعرها تصويراً صادقاً لا مبالغة فيه ولا غموض ، كما صور ساعة الرحيل اذ وقف لدى شجرات الطلح يسفح الدمع تصويراً جميلًا .

ثم انتقل من وصف الاطلال الى وصف الليل فكان اقدر من وصف الليل ، وهذه الأبيات اروع ما قاله في وصفه ، ومبعث روعتها تصويره الليل في نكره ووحشته ، وهوله ورهبته ، بامواج البحر تطوي ما يصادفها ، وكذلك مناجاته الليل مناجاة تنم عن الصبر مع اليأس ، وهذه قدرة لم نلمسها الا عند امرىء القيس « وما الاصباح منك بامثل » وتصويره الليل بالجمل يتمطى بصلبه ، ويردف باعجازه ، وينوء بكلكله تصوير جميل لتشبيه المعنوى بالحسي ، وتصوره النجوم قد ثبتت

في السماء لا تزيم عن مكانها بانها مشدودة بامراس تصور مستمد من البيئة ، أخاذ ببراعته في التصور والتصوير .

وقد عاب النقاد القدماء على الشاعر التضمين ، بتعليق معنى البيت الثاني بالبيت الثالث ، ولا نرى في ذلك عيباً ، وانما العيب ان نتكلف جمع معنى في بيت لا يتحمله .

وان من ينعم النظر في وصفه للفرس يجد اروع ضروب الوصف وافتن الوان الجمال ، تزخر الفاظها بمعان لا تبلغ اذا جزمنا انها اوسع مما تعارف عليه اللغويون ، وتصور معانيها صوراً يعجز عن الاتيان بها امهر المصورون ، وانها لترسل وميضاً تشعر به ولا تصوره ، فهي مفعمة بالصور الكاملة ، زاخرة بالحياة النابضة ، فكأنك حيالها في ميدان او في حلبة فرسان .

اي حياة نابضة اوضح من حركة الكر والفر ، والاقبال والادبار ؟ وقد اتت كلها في شطر واحد ، ان هذه لا تصدر عن جواد في لحظة ، ولكنها تلمح في حلبة ، واننا لنتخيل الصخرة العظيمة تسقط من شاهق ، فتمتلىء القلوب من سقوطها هلعا ، وقد نتصورها ، ولكننا نعجز عن تصور اثرها فيمن تسقط عليه ، إلا اننا نستشعره اذ نسمع : « كجلمود صخر حطه

السيل من علي » .

واي حياة خافقه نابضة اقوى من حياة تأخذ بجميع حواسك فترى منها وتسمع ، ولكنك لا تكتفي بالسمع والبصر ، بل تطالبك باللمس وبغير اللمس ، هذه الحياة تبدو في قوله :

على الذبل جياش كأن اهتزامه

اذا جاش فيه حميه غلى مرجل

وان الالفاظ مع قوتها لا تغنيك شيئا كثيراً في تصور « اهتزامه » ولا في تصوير « غلى مرجـــل » وتخيل حيواناً يتألف من جملة اجزاء لعدة حيوانات ، حيوان له خصر كخصر الظبي ، وساق كساق النعامة وسير كسير الذئب ، وتقريب كتقريب التنقل ، اليس ذلك الحيوان نوع فريد بين سائر انواع الحيوان ؟

وانك لتتخيل الغلام الغر بالفروسية يعتلي صهوته ؛ بل صهواته وفرق بعيد بين اللفظين وان اديا معنى واحداً ، فان هذا الجمع يشعر بالفخامة والضخامة ، والحول والهول ؛ حتى ليكاد الغلام يزول دون ركوب ، لانـه لن يثبت على ذلك الفرس الجبار ذي الصهوات ، لن يثبت عليه لا بجموحه فهو عتيق اصيل ، ولكن لاندفـــاعه فهو القوي الشديد ، وتتصور صورة ذلك

الفرس العنيف العنيد تتطاير اثوابه ، فلا يستطيع جمعها ، فهو مشغول بجسمه عن ثوبـــه ، وتتصور اثوابه تتطاير في جميع الجهات ، فكأنها جناحان لطائر جارح .

وتتخيل خرارة طفل قد احكم فتل خيطها ، واجاد اللعب ، انك لا تستطيع أن تتبين الخذروف لسرعة دورانه ، ولتتابع حركة الصبي به .

واستطاع شاعرنا ـ دون تكلف ـ أن يفصم قصائـــده بالصور المتكاملة الظلال ، فلنعد هذا النوع لنقف وقفة قصيرة عند نوع آخر تظهر فيه عبقريته .

الدقة في التعبير سمة امرىء القيس الظاهرة وآيته الواضحة ، فتأمل هذا البيت :

كميت يزل اللبد عن حال متنه
كما زلت الصفـــواء بالمنزل

فحال متنه وسط ظهره ، وهنا تبدو الدقة ، فقد يزل اللبد لأنه لا يتوسط الظهر ، ولكنه وقد توسطه لا يزل الا لملامسة ظهره ، واكتناز لحمه ، ومثل

مسح اذا ما السابحات على الونى
أثرن الغبار بالكديد المركل

فقد يثور الغبار اذا كانت الارض رملية او متربة او سهلة وليس في ثوراته حينئذ ما يدل على الونى او الكلال ، وانما الذي يدل عليها هو اثارة الغبار من الكديد ومثل :

ضليع اذا استدبرته سد فرجـــه

بضاف فويق الارض ليس بأعزل

قد يكون الذيل ضافيا سابغا ولكنه معيب ، لان صاحبه يتعثر فيه لطوله في عدوه ، ولذلك احترس من هذا المعنى بقوله « فويق » دون فوق لتفيد قربه من الارض دون ضفوه عليها.

وتستطيع متابعة التأمل لتحكم بأن الدقة يراعيها كل المراعاة ذلك الشاعر الذي حكم له بأنه استنبط للشعراء معاني ، وفتح لهم في الشعر منابع وعيونا .

وليس عجبا على امرىء القيس ان ينال زعامة الشعر وان تكون اقوى أسباب زعامته وصف فرسه ، فقد صاحبه من مهده الى لحده ، وبين الصاحبين مجاوبة هي أقوى عوامـــل الاجادة والاحسان ،

وقد وصف امرؤ القيس السحاب والبرق والغيث . وقد تحدث القدماء عن مواطن الجمال في هذا الوصف فقالوا : « ان هذا اشعر مـــا جاء في وصف الغيث » . وسأل أبو عمرو بن

العلاء ذا الرمة : اي الشعراء الذين وصفوا الغيث أشعر ؟ فقال امرؤ القيس وأنشد الأبيات .

ولكنهم تركوا حكمهم دون تعليل شأنهم في جميع نقدهم وأما مواطن الجمال التي اجملوها فهي تلك الصور المتعاقبة ، فالديمة مسترخية الذوائب ، والأوتاد عارية حينا، ومغطاة حينا والصنب سابح حاذق يثنى برثنه ويبسطه شأنه في ذلك شأن السباح الماهر ، اذ يبسط ذراعيه ويثنيها ، والارض الشجراء غطيت ، فليس يبدو منها غير رؤوس اغصانها يغطيها الزبد الابيض ، كانه الخمر ، وهي صور فيها الكثير من مظاهر البادية ، فيها وتد الخباء ، والصنب ، والبرثن والخمر .

وصف امرؤ القيس حمار الوحش ، واننا نجد بين معانيه وبين معاني سويد بن ابي كاهل تشابهاً كثيراً وليس كبيراً على سويد أن يقبس من امرىء القيس فاننا لا نكاد نجد شاعراً لم يكن عالة على امرىء القيس في معانيه ، فاذا قال امرؤ القيس :

وأيقن ان لاقينه أن يومه
بذي الرمث ان ماوتنه يوم انفس

الفينا سويد يقول .

دانيات ما تلبسن به

واثقات بدماء ان رجع

ومع ان متطلبات الاخذ أن يزيد الآخذ عمن أخذ عنه في المعنى او في الاسلوب ، فان هذا الواجب لم يؤده سويدفبيت امرىء القيس ادق في المعنى ، فقد حدد المكان الذي يكرن فيه التحادث ، وهو اجمل في الاسلوب ، واذا قال امرؤ القيس :

فبات على خـــد احم ومنكب

ومنجعته مثل الاسير المكردس

حاول سويد أن يتابعه ،فقال دون ان يبلغ تصوير امرىء القيس :

كف خداه على ديباجة

وعلى المتنين لون قد سطع

فبيت امرىء القيس فيه وصف وفيـه صورة :

الوصف في الشطر الاول والصورة في الشطر الاخير ، اما بيت سويد فليس فيه غير الوصف .

وقد وصف امرؤ القيس الكلاب ، وهي عماد الصورة ، ولكن سويدا مر عليها عدوا ؛ كانه خشي ان تريث ليصفهاان تلحقه ، « وادركنه يأخذن بالساق والنسا » او يشبرقنه « كما

شبرق الولدان ثوب المقدس » وتصوير امرىء القيس الهدوء والسكون بأنه كهدوء الرجل المعرس يرسل لنا شعاعا عما كانت عليه بيوت المعرسين بعد أن ينفض السامرون .

وقال في وصف حرب ناشبة بين عقاب وذئب قال : وقفت العقاب على ارم فرأت الذئب وكان بينهما قمم الجبال والربا والنجاد ، فهرولت اليه تهوي « بحثها من هوى اللوح تصويب » وهي اول الصور التي رسمها امرؤ القيس في هذه الابيات .

انقضت عليه كما تسقط الدلو المفعمة بالماء فقد انبتت عراها وخانها وذمها وتكريبها ، وهذه صورة أخرى ، واجمل من هاتين الصورتين تشبيهها بالبرق والريح ، وحقا ان مرآتاهما عجب وبلوغ هذه الصورة وتكوينها في كلمتين أغرب واعجب ، ووصف المعركة ، وان العقاب قد انشبت في الذئب مخالبها وانه ينسل من تحتها منقوب الجنب لائذا بالصخر ، وصف بلغ القمة في تصوير الحقيقة ، وصدق الوصف .

انك لتجد في هذه الابيات صوراً خلابة متسقة ، وحياة دفاقة ، واي صورة تطفح بالحياة اوضح من هذه :

فادركته ، فنالته مخالبهـــا

فانسل من تحتها ، والدف مثقوب

يلوذ بالصخر منها بعد ما فترت
منها ومنه على الصخر الشآبيب

ادركته ، تصور عدوهما وملاحقتها اياه ، فنالته مخالبها ، تصور قبضها عليه وانشاب مخالبهـــا فيه ، فانسل من تحتها ، تصور محاولته الافلات من مخالبهـــا حتى استطاعه ، والدف منقوب تصور الحال التي افلت عليهـا ، يلوذ بالصخر ، تصور اختباءه بين الصخور ، بعد فتورهما ، وخمود تدافعها .

اما جمال الاسلوب فيبدو في اكثر الابيات بل في جميعها ، فمن الجمال الفتان قوله :

صبت عليه ، ولم تنصب من امم
ان الشقاء على الاشقين مصبوب

يعجبك دون شك هـــذا الطباق السلبي ، كما يعجبك ذلك الاحتراس في قوله من امم . اما الحكمة فهي من اخلد الحكم «ان الشقاء على الاشقين مصبوب» واجمل ما فيها كلمة مصبوب لأنها تومي باندفاع الشقاء اليه ، وسقوط البلاء عليه ، ومن جمال الاسلوب قوله :

كالبرق والريح مرآتاهما عجب
ما في اجتهاد على الاصرار تغييب

وبعد فالابيات جميلة من جميع النواحي ، وكلما زدتها تأملا زدت شعوراً بجمالها .

وكذلك وصف شاعرنا الحرب وسوء عواقبها بعد ان مارسها اعواماً وعرف حقيقتها ، فهي تغري وتغوي ؛ تغري بالنصر وتغوي بالظفر والغنيمة ، تبدو في زينة فاتنة ، وصورة ساحرة ، ولكنها ما تلبث ان تظهر على حقيقتها ؛ تنال من الغالب والمغلوب ، وتأخذ من الطالب والمطلوب ، فهي كالداهية العجوز توقع في الشباك بعد ان تنصب الاشراك .

والجميل في هذه الابيات أن امرىء القيس استمد صوره من المرأة شابة وعجوزا ، والمرأة هي أول من اثار الشرور ، وحمل الاوزار ، وما أشبه قول امرىء القيس بقول سليمان عليه السلام : الشر حلو اوله ، مر آخره .

انتهى

اسئله

س ١ - تحدث بايجاز عن امرىء القيس ونشأته .

س ٢ - تحدث عن آثاره وديوانه .

س ٣ - قارن بين وصف الاطلال عند امرىء القيس وبينه عند النابغة .

س ٤ - اشرح وحلل وانقد الابيات التي يصف فيها الليل.

س ٥ - اشرح وحلل وانقد الابيات التي يصف فيها الفرس.

س ٦ - اشرح وحلل وانقد الابيات التي يصف فيها السحاب والبرق والغيث .

س ٧ - اشرح وحلل وانقد الابيات التي يصف فيها الحمار الوحشي .

س ٨ - اشرح وحلل وانقد الابيات التي يصف فيها الحرب الناشبة بين عقاب وذئب .

س ٩ - اشرح وحلل وانقد الابيات التي يصف فيها الحرب وسوء عواقبها .

فهرست الكتاب

صفحة

امرؤ القيس ، اجداده ، ملوك كندة ووائل . ٤
امرؤ القيس ، حياته قبل مقتل ابيه ٨
امرؤ القيس ، بعد مقتل ابيه ١١
امرؤ القيس ، عند قيصر - فوز امرىء القيس . ١٩
رجوع امرىء القيس - وفاته - اسطورة الحلة المسمومة ٢١
دين امرىء القيس ٢٢
آثاره - الديوان - طبعاته وشرحه ٢٤
الوصف في شعره - نصوص مختارة ٢٦
١ - وصف الاطلال ٢٦
٢ - وصف الليل ٢٧
٣ - وصف الفرس ٢٨
٤ - وصف البرق ٣١
٥ - وصف السحاب والبرق والغيث ٣٢
٦ - وصف الحمار الوحشي ٣٤
٧ - وصف حرب ناشبة بين عقاب وذئب . . ٣٧
٨ - وصف الحرب وسوء عواقبها ٤٠
تحليل النصوص ٤١
نقد النصوص ٥٢

مطابع دار الهلال
بيروت - شارع بشاره الخوري - بناية نقاش
تلفون ٢٥٤٨٧

المكتبة
المؤلف للبنين
الجامعة الاميركية
بيروت

٣

النفائس

سلسلة أدبية تبحث في الشعر والنثر
تهم الطالب والباحث والمدرس

مراحل النثر القديم

الجزء الأول

بقلم

طه محمد القاضي

(ليسانس في الادب العربي)

حقوق الطبع محفوظة

بيروت — أيار ١٩٥٥

الطبعة الاولى

كلمة لا بد منها

قدمت هذه الرسالة الى معهد الآداب الشرقية بجامعة القديس يوسف للآباء اليسوعيين في بيروت لنيل درجـــة (الليسانس) في الآداب العربية في ٣١ آذار عام ١٩٥٤ م .

وقد نالت موافقة مجلس الجامعة بعد أن اجتزنا الامتحان التحريري في ١٤ حزيران ١٩٥٤ م . والامتحان الشفهي في ٢٢ حزيران ١٩٥٤ م . وها نحن ننشرها في أجزاء جعلناها في عداد سلسلة النفائس بعد أن اضفنا إلى الباب الاول والفصل الاول من الباب الثاني معلومات رأيناها ضرورية .

وبعد مطالعتنا للرسالة للمرة الثالثة رأينا ان نضيف لكل من الباب الاول والثاني فصلا كي تتم الفائدة المرجوة .

المؤلف

بيروت في ١٠ أيار ١٩٥٥

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن .

٢ ـ طبقات الشعراء ، محمد بن سلام ، طبعة Hell .

٣ ـ في الشعر الجاهلي ، طه حسين ، مصر ، ١٩٢٦ م .

٤ ـ الأغاني طبع دار الكتب ، لابي فرج الاصفهاني .

٥ ـ فتوح البلدان ، للبلاذري ، طبع اوروبا .

٦ ـ عيون الأخبار ، لابن قتيبة ، طبع دار الكتب .

٧ ـ مجمع الامثال ، للميداني ، طبع المطبعة الخيرية .

٨ ـ الوزراء والكتاب للجهشياري ، طبع الحلبي .

9— Nicholson , Aliterary History of the Arabs — ٩

١٠ ـ الشعر والشعراء لأبن قتيبة ، طبع ليدن .

١١ ـ الأغاني ، طبع الساسي .

١٢ ـ المفضليات ، طبع لاتيل .

١٣ ـ الحيوان ، للجاحظ ، طبع الحلبي .

١٤ – السيرة النبوية ، لابن هشام ، طبع الحلبي .
١٥ – الطبري ، طبع ليدن .
١٦ اصل الخط العربي ، للدكتور خليل نامي .
١٧ – جمهرة الامثال ، للعسكري على هامش مجمع الامثال طبع المطبعة الخيرية .
١٨ – الجمهرة ، لابن دريد ، طبع الهند .
١٩ – الزهر ، للسيوطي ، طبع الحلبي .
٢٠ – البيان والتبيين ، للجاحظ ، الطبعة الأولى ، نشر السندوبي .
٢١ – خزانة الأدب ، للبغدادي ، طبع بولاق .
٢٢ – حاتم السجستاني – طبع مطبعه السعادة .
٢٣ – حياة الحيوان ، للدميري ، طبع المطبعة الخيرية .
٢٤ – شرح ابن ابي الحديد على نهج البلاغة .
٢٥ – الكامل ، لابن الاثير ، طبع ليدن .
٢٦ – السيرة الحلبية ، طبع بولاق .
٢٧ – موطأ مالك ، طبع هجر بمصر .
٢٨ – صحيح مسلم ، طبع الآستانة .
٢٩ – اعجاز القرآن ، للباقلاني طبع مطبعة الاسلام .

٣٠ ـ نقد الشعر ، لقدامة ، طبع الجوائب .
٣١ ـ ديوان ابن أوس بن حجر ، طبع فينا .
٣٢ ـ تاريخ الطبري ـ القسم الأول .
٣٣ شرح التفاصيل لابي عبيدة ، طبعة بيفن .
٣٤ ـ الشعر الجاهلي في الروائع ، فؤاد افرام البستاني ، طبعة ثالثة بيروت ١٩٤٩ م .
٣٥ ـ تفسير الطبري والزمخشري في سورة المدثر .
٣٦ ـ شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهره ١٣٦٥ هـ ١٩٤٦ م .
٣٧ ـ راجع تطور الأساليب النثرية ، انيس الخوري المقدسي .
٣٨ ـ صبح الأعشى ، للقلقشندي .
٣٩ ـ وفيات الأعيان ، لابن خلكان .
٤٠ ـ دائرة المعارف البريطانية .
٤١ ـ صحيح البخاري .
٤٢ ـ زاد المسلم ، لابن مسلم .
٤٣ ـ رسائل البلغاء ، لمحمد كرد علي .

اهداء الكتاب

الى من لقنني كلمة ، وخط لي عبـــارة ، وقرأ لي جملة ، وخطا معي خطوة ..

الى من علم انامليّ كل فن ، واعـاد اليها النور الذي سلب من عيني .

الى من مهد لي السبيل ، وأسدى الي كل جميل ، وكان لي عونا على تذليل الصعاب .

الى من اخرجني من الظلمات الى النور ، وكان لي سنداً ، ودليلا في خوض معركة الحياة .

الى من اخـذ بيدي الى الشاطيء الميمون ، وجعل النور الذي اختنق في عيني ، يتفجر في قلبي ولبي

الى كل فكر حر وروح وثاب طموح . وكل عنصر فعال في خدمة الانسانية المعذبة ، وانقاذها من براثن التعاسة والشقاء

الى تلك المصابيح التي تملأ نفوس الناشئة بالاشعاع والنور ، وتخلق فيها قوة روحية ، وطاقة ثورية على كل باطل وفاسد .

الى كل من تحرر من كل غاية شخصية ، ودعاية مغرضة ، وكان عدواً للانحلال والظلم والباطل ، ونصيراً للفضيلة والعدل والحق .

الى اصحاب الضمائر الحية وارباب الاصلاح الاجتماعي والى كل من يتمتع بديموقراطية صحيحة ، ويحارب الانظمة الطبقية

الى الاساتذة الافاضل والادباء الاعلام ، الى من قال بحقهم امير الشعراء احمد شوقي :

قم للمعلم وفـــه التبجيلا
كاد المعلم ان يكون رسولا

الى هؤلاء جميعاً ، الى كل انسان ... اهدي هذا الكتاب .

المؤلف

بيروت في ١٠ أيار ١٩٥٥

فاتحة الكتاب

كنا قد عقدنا النية على تتبع تاريخ النثر العربي في مختلف عصور آداب اللغة العربية ، لكننا عدلنا عن عزمنا هذا ، لأن مثل هذا البحث يتطلب دراسة واسعة تستغرق وقتاً طويلا .

وبعد ان توقفنا قليلا عولنا على دراسة النثر في القرن الرابع الهجري ؛ لكننا توقفنا عن ذلك لما عثرنا على كتاب « النثر الفني في القرن الرابع » للمرحوم الدكتور زكي مبارك ، وكذلك وقفنا على كتاب « النثر الفني » للدكتور احمد زكي ، وعلى كتاب « تطور الاساليب النثرية » للاستاذ انيس الخوري المقدسي ، ولهذه الكتب كلها قيمة ادبية كبرى وقد سدت فجوة واسعة في المكتبة العربية .

وبعد كل هذه المحاولات رأينا ان نعالج في بحثنا مراحل النثر القديم التي تمتد من العصر الجاهلي حتى اواخر العصر الأموي . ونرجو ان نكون قد اسدينا خدمة يسيره باصدار هذا البحث

واننا لا ندعي العصمة فهي لله وحده ، والانسان معرض للخطأ ولولا الخطأ ما عرف الصواب، ونأمل الا يبخل علينا حضرات الادباء والنقاد بآرائهم من نقد وتوجيـــه وارشاد . ولا يفوتنا بهذه المناسبة ان نخص بالشكر الجزيل بعض العناصر الطيبة التي قدمت لنا خدمات جلى معنوية ومادية اثنـاء تلقينا العلوم في الجامعة .

وبعد ، فقد تتبعنا في دراستنا لمراحل النثر القديم ، النثر في العصر الجاهلي تبعاً لحياة العرب البسيطة حيث لا تأنق ولاتعقيد ولا تحذلق فيما وصلنا من نثر تلك الحقبة من أمثال وسجع وخطابة ، وقد افردنا لكل نوع منها فصلًا خاصاً بعد أن اثبتنا صحة نسبة النثر الجاهلي ووقفنا على جذور قليلة للقصة فيه.

ثم انتقلت الى دراسة النثر في صدر الاسلام وقد دار الزمان دورته وفتح صفحة مشرقة في تاريخ النثر العربي اذ اخرجهم من الظلمات الى النور ومن دائرة الشعوب القبلية الى دوائر الامم المتحضرة . وبعد ان تدارست القرآن والحديث والرسائـــل النبوية وجدت النثر يستمر اثناء العصر الاسلامي في الدائرة التي رسمها العصر الجاهلي من حيث نسجه وصوغه . وان اختلفت موضوعاته وتشعبت معانيه ، فقد اتسعت الخطابة اتساعاً شديداً

واخذ يظهر بجانبها نوع جديد من النثر ،لم يكن للعرب عهد به وهو الكتابة الفنية ، او ما يسميه بعض الباحثين بالنثر الفني ، وبعد ان تحريت بدقة نشأة هذا النوع ، أثبتت انـــه لم ينشأ بفضل العناصر التي تحدرت من اصول اجنبية ، وانما نشأ بفضل العرب انفسهم .

وفي ظل نظمهم السياسية الجديدة . وليس معنى ذلك اني انكرت تأثير العناصر الأجنبية في هذا النوع ، بل لقد اخذت تشارك فيه بعد مرور الزمن ، ولكنها مشاركة اقتصرت على نموه وتطوره لا بوجوده ونشأته . وراح هذا النوع يسير مع الزمن آخذاً في التطور والارتقاء ابان العصر الاسلامي حتى تناوله عبد الحميد الكاتب فاعطاه صورته النهائية ، وهي صورة اندمجت في صورة المذهب القديم . وقد ذكرنا ان عبد الحميد كان يتصل بالثقافة الفارسية مباشرة ، اما الثقافة اليونانية فاتصل بها عن طريق استاذه سالم الذي كان يعرفها معرفة وثيقة .

وهنا ينتهي مدار بحثنا ،ولو اننا تتبعنا دراسة النثر في مطلع العصر العباسي لرأينا ان ابن المقفع وسهل بن هرون والجاحظ وامثالهم ممن كانوا يعنون بالكتابات الطويلة ، او بعبارة اخرى بالرسائل والكتب الأدبية ، وقد حافظت هذه الجماعة على اطار

النثر الذي تسلمته من عبد الحميد الكاتب ، فلم تخرج به الى مذهب جديد ، بل عاشت في اطار المذهب القديم ، على الرغم من البون الشاسع بين ثقافتها وثقافة اصحاب المذهب في العصور السابقة .

المؤلف

بيروت في ١٠ أيار ١٩٥٥

الباب الاول

النثر في عهد الانشاد

الفصل الاول

صحة نسبة النثر الجاهلي

قال لي صاحبي وهو يحاورني ويبتسم والبشر يطفح من وجهه والغبطة والحبور تغمران محياه :

(أنا معجب اشد الاعجاب بالدكتور طه حسين وبمؤلفاته ولا سيما كتابه « في الادب الجاهلي » الذي ضمنه آراءه في هذا الأدب وظهرت شخصيته في هذا الكتاب جريئة صريحة وهو اول كتاب من نوعه تعرض الى الادب الغربي القديم بالنقد والتحليل بلغة سهلة ميسورة وبأسلوب جديد لم يألفه النقاد والكتاب من قبل . والدكتور طه حسين في كتابه هذا يسير على قواعد العلم والمنطق ويشك في صدق الرواة ولا يؤمن بصحة الرواية وينفي معظم الادب الجاهلي من شعر ونثر نفياً قاطعاً فهل انت على وفاق مع الدكتور طه حسين وهل تعتقد

بصحة رأيه في هذا الادب ؟ أم انت على خصام مع الدكتور طه حسين في هذا الموضوع ؟ ولا تعتقد بصحة رأيه في الادب الجاهلي ؟ . فان كنت كذلك فاثبت لنـــا صحة نسبة النثر الجاهلي وقابل الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان . وانا لا اطلب اليك ان تتعرض الى رأي الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي لانك ان فعلت ذلك خرجت عن الموضوع بل اطلب اليك ان تتعرض الى رأيه في النثر الجاهلي لانه (موضوع هذاالكتاب).

قلت لك يا صاحبي ان تعجب بمن تشاء من الادباء ولك ان لا تعجب بمن تشاء من الادباء . لك ان تحب من تشاء من الادباء ولك ان تكره منهم من تشاء . ولكن ليس لك ان تفرض اعجابك بهذا الاديب على سواك من الناس وان تفرض محبتك الى ذلك الاديب على غيرك من الناس وليس لك ان تحمل الناس على كره من تكرهه من الادباء والكتاب فلك رأيك وللناس آراءهم ولك ذوقك وللناس اذواقهم ولـك اتجاهك في الحياة ولغيرك اتجاهاتهم في الحيـــاة . لا شك يا صاحبي ان الدكتور طه حسين اديب مشهور والشهرة حظوظ ولا ريب ان ذكره يملأ افواه الناشئة واشباه الناشئة في الشرق والغرب ولعل كثرة انتاجه التي لا تكلف القارىء شيئاً من الجهد والعناء

لقلة ما فيها من الأفكار المبتكره ساعدت على ذيوع صيته في الناس وحلقت به في الآفاق وجعلت ذكره يجري على كل شفة ولسان .)

قال صاحبي .

(لقد تحاملت على الدكتور طه حسين ولعل في تحاملك عليه ما يسمى بالغيرة او الحسد وأرى ان تدع الآن الدكتور طه حسين وشأنه وان تدخل بنا في صلب الموضوع لتثبت لنا صحة نسبة النثر الجاهلي ان استطعت الى ذلك سبيلا او تنفي صحة نسبة هذا النثر ان كان ذلك في مقدورك ولك مطلق الحرية في ان تكون من انصار القديم او من انصار الجديد) .

قلت :

(انا لا اخشى يا صاحبي في قول الحق لومة لائم ولا مبرر لغيرتي من الدكتور طه حسين او حسده على ما يتمتع به من مكانة مرموقة بين الادباء وكيف يصح لي ان اطمع في ان اكون من مصاف الدكتور طه حسين واغار منه واتحامل عليه وانا لا ازال في الطريق الادبي وقد اجتاز هو آخرها وكيف يصح لي ذلك ولم اشق طريقي بعد في الحياة الادبية ولم اخرج الى حيز وجود الادباء . والدكتور طه حسين اديب يشار اليه

بالبنان وقد طارت شهرته وذاع صيته . وكيف يجوز لمن لا يزال في المهد ان يطمع في منافسة من اشرف على اللحد).

ولأنتقل بك يا صاحبي الآن من هـذا الجدل الى ما نحن بصدده لأثبت لك صحة نسبة النثر الجاهـلي على الا تتهمني بالرجعية والا تعتقد انني من انصار القديم والمحافظة على هـذا القديم . وأود ان تدرك أنني من انصار المذهب الجديد في الادب والتجديد فيه . الا انه لا يمكننا إنكار الحقيقة وتناسي الادب الجاهلي هذا الادب الذي حفظ لنا الرواة منه نتفاً ضئيلة تنسب الى العرب في جاهليتهم من الرسائـل والخطب وسجع الكهان والمرافة والامثال التي كان يتناقلها الناس على الألسن في عهد الانشاد من جيل الى جيل حتى أصبحت بمثابة الحكم في تلك الايام لقربها من طبيعة القوم وعاداتهم ،الا ان النقد العلمي الحديث يا صاحبي لا يطمئن الى صحة الرواية ولا يقبل ان ينسب هذه النتف الى العصر الجاهلي لكثرة النحل في ذلك العصر والعصور التي تلته ولأن خصائص ما ينسب الى العرب في جاهليتهم من النثر تنطبق عليها خصائص النثر في صدر الاسلام فلا بدعـة اذاً اذاقلنـا انها نتف قيلت في العهد الاسلامي ونحلت الى العصر الجاهلي، ولسنا بصدد البحث في اسباب النحل

ونحن اذ نقف هذا الموقف من النثر الجاهلي لم نأت بجديد ، فالشك قديم في الادب الجاهلي ، واول من ساورهم الشك في هذا الادب يا صاحبي محمد ابن سلام الجمحي صاحب « طبقات الشعراء »[1] والخليل بن أحمد واضع أسس علم العروض العربي ، وتلميذه الاخفش ومن الحديثين المستشرق الانجليزي « مارغوليوث » الذي استغل أسباب الشك في الشعر الجاهلي في مقدمة طبقات الشعراء في بحث نشره في لمجلة الاسيوية الانجليزية في غضون سنة ١٩٢٢ في كثير من الايجاز والتحفظ وقام بعده الدكتور طه حسين ونشر كتاباً أسماه « في الشعر الجاهلي » في غضون سنة ١٩٢٦ وقد استغل آراء من تقدموه في طرق هذا الباب من قدماء ومحدثين بشيء من التوسع والتعميم والشمول . ولم يقف شك الدكتور طه حسين في صحة نسبة الشعر الجاهلي فحسب بل تعداه الى الشك في شخصيات بعض شعراء ذلك العصر ولسنا نقف يا صاحبي من النثر الجاهلي موقف الدكتور طه حسين من الشعر الجاهلي او قل موقفه من الادب الجاهلي عامة . لكننا نرى في شكه شيئاً من الغلو والاسراف والتطرف وقد عرض الدكتور طه حسين هذه الاسباب ، ورتبها بما يلخص :

---

(١) راجع محمد بن سلام : طبقات الشعراء (طبعة Hell)ص٣ - ١٥

١ – اللغة . لم تكن موحدة في القبائل المختلفة قبل الاسلام فلم يكن ممكناً أن تأتي هذه الكثرة من الشعر في لغة واحدة.

٢ – السياسة الحزبية . كانت تدفع الكثيرين من المنتمين الى الاحزاب المختلفة والقبائل المتناظرة الى وضع الشعر ونحله آباءهم وسلفاءهم ، ينسبون به اليهم الفخر والغلبة والتقدم .

٣ – الدين . كان يدفع المسلمين الى نحـــل الشعر الجاهلي ليصوروا به انتظار القوم بعثة محمد ، كما كان ينتظر اليهود مجيء المسيح ، ولغير ذلك من المآرب السياسية في صدر الاسلام . فيهيج الانصار على القرشيين ، والقرشيون على الانصار متبادلين الهجاء ، متسابقين في وضع الشعر القديم يتنازعون بواسطته الفخر في الايام السابقة .

٤ – اتساع الفن القصصي . كان يهيب بالقصاصين الى نظم الشعر يضعونه على السنة أبطالهم .

٥ – تنافس العناصر العربية والشعوبية . كان يؤدي الى الضرب كل منهم على وتر العصبية لاهله والفخر بسلفائه ، والتغني بامجاد اجداده بشعر قديم .

٦ – منافسة الرواة والعلماء في حفظ الاشعار والحرص على تفسير ما اشكل من الالفاظ ، او على تخريج ما غمض مـــن

طرق التعبير وشواذ النحو [1]

ولم يأت الدكتور طه حسين بجديد في كل هذه الاسباب الا التوسع في عرضها ، والتبسط في ايراد الامثلة عليها . ولم يكن الكتاب ليحدث تلك الضجة لولا امران :

الاول : ان الدكتور يشمل بشكه كل الشعر الجاهلي تقريباً ، معلناً رأيه كنظرية جديدة في تاريخ الادب ، يبالغ فيها حتى ينفي وجود بعض الشعراء ، لا من جهة شعرهم فقط بل من جهة كيانهم البشري ، داعياً الى التخلي عن تأثير المحيط والملة ، والدين ، في الدرس الادبي .

الثاني : ان الدكتور، وهو المسلم ، خريج الازهر، يتظاهر بالثورة على التقليد الجاري منذ قرون . فينكر من جملة ما ينكر ، صحة نسبة الابيات التي استشهد بها ابن اسحق وابن هشام في سيرة النبي . ويمس في بحثه عن اسباب الانتحال ، صفة النبي المذكور من حيث انه كان منتظراً في البلاد العربية من عهد بعيد . على انه ، في هذه الناحية من شكوكه ،

(١) طه حسين : في الشعر الجاهلي مصر ١٩٢٦ ص ٢٢ – ١١٨

يظل مديناً لابن سلام بشيء من الملاحظات الدقيقة [1] .

والحقيقة أن الشك مفيد كأسلوب علمي للوصول الى الحقيقة شرط أن لا يغفل العالم عن ان الشك مرحلة انتقالية اما الى الاثبات واما الى النفي. وحيث لايمكن الخروج منه الى احدى هاتين الحالتين فليس من الاسلوب العلمي الرصين في شيء. كما أنه قليل الفائدة في تطبيقه على عهد من « الادب الشفهي » لانكاد نعرف عن حياته «الادبية» شيئاً الا بواسطة هذا «الادب الذي نشك فيه، دون ان يتمكن هذا الشك من نقلنا الى النفي اوالى الاثبات . ولقد كان أدباء العصر الاموي ، والعباسي الاول ، اقرب منا مع تنبههم الى اسباب الانتحال جميعها او اكثرها الى التمييز بين الصحيح والزائف ، والاصيل والزائد ، من ذاك الشعر القديم او قل الادب القديم عامة .

وليس يشكل على اهل العلم زيادة ذلك ، ولا ما وضع المولدون [2] .

واما كتاب « في الشعر الجاهلي » الذي شك مؤلفه في صحة نسبة هذا الشعر فقد اضطر الدكتور طه حسين تحت

---

(١) راجع محمد سلام : الكتاب المذكور ص ٦١ .

(٢) محمد بن سلام : الكتاب المذكور ص ١٤

الضغط السياسي ، الى ان يحذف منه مقاطع بل فصولاً اعتبرت ماسة لبعض العقائد الدينية ، وان يغير فيه ويضيف اليه ، ويعيده مطبوعاً باسم « في الادب الجاهلي » بعد ظهور الأول بسنة[1] . ومن هنا شمل الدكتور بشكه كل الادب الجاهلي من شعر وخطابة وامثال وقصص وسجع الكهان . ولكنه لم يسلم ، هذه المرة ايضاً ، من النقد الشديد ، رصين حيناً ، وعاطفي احياناً .

ومهما يكن من امر فان ما يهمنا من تلك الآثار القديمة ، في محاولتنا استخراج صفتها الانشادية ، انما هو اسلوبها ، وسواء اظهر هذا الاسلوب في الاثر الاولي الاصيل ام في صورته المصنوعة ، دون شك — ان كانت مصنوعة — على مثال قديم وسنستنتج كل ذلك من دراستنا للآثار القديمة من خطب واسجاع وامثال في غير هذا الباب .

واذا شئت يا صاحبي الوقوف على تفاصيل هذه الحركة الادبية وما جرته من احكام متناقضة تضطرب بين مولدات

---

(١) ظهر « في الشعر الجاهلي » سنة ١٩٢٦ ، في القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، في ١٨٢ ص . صغيرة وظهر « في الادب الجاهلي » سنة ١٩٢٧ في القاهرة مطبعة الاعتماد ، في ٣٧٦ ص . متوسطة .

التعصب العاطفي ، وبوادر الرغبة في خدمة العلم ، عليك ان تطالع ، اولا كتابي الدكتور المذكورين ، ثم :

قرار لجنة العلماء المرفوع لشيخ الجامع الأزهر في ٢٦ شوال ١٣٤٤ .

مصطفى صادق الرافعي : تحت راية القرآن ، المعركة بين القديم والجديد ، القاهرة ١٩٢٦ .

محمد فريد وجدي : نقد كتاب « في الشعر الجاهلي » القاهرة ٥ اكتوبر ١٩٢٦ .

محمد مصطفى جمعه : الشهاب الراصد ، القاهرة ، ١٩٢٦ .

محمد خضر حسين التونسي : نقد كتاب في الشعر الجاهلي ، القاهرة ١٣٤٥ .

محمد احمد الغمراوي : النقد التحليلي لكتاب « في الادب الجاهلي » القاهرة ١٩٢٩ – وهو افضل ما ظهر في الموضوع .

ثم فؤاد افرام البستاني : حول الأدب الجاهلي في « المشرق » (٢٧ (١٩٢٩) ٤٣٤ – ٤٤٣) .

واذا كان النقاد قد وقفوا من الشعر الجاهلي موقف الشاك المتسائل وهو يتقيد بالوزن والقافية فما بالك في النثر العادي المطلق الذي يخلو خلواً كاملا من الأوزان والقوافي ولا

يمكن ان يحفظ الا عن طريق الكتابة .

ويمكننا القول يا صاحبي ان الشعر لم يضيع لانه لغة العاطفة اما النثر فقد ضاع لشيوع الاميـة بين الناس ولأنه لغة العقل والكتابة ولسنا نزعم ان العرب لم يعرفوا الكتابة في ذاك العصر الذي يصح ان نسميه عصر الانشاد . ولكننا نرى انهم عرفوا الكتابة ولم يتخذوها اداة لتدويل انتاجهم الادبي وانما كانوا يدخرون ثروتهم الادبيـة في الحافظة ويتناقلونها بطرق الانشاد والخطابة في الاسواق الادبية كسوق عكاظ وذي المجاز وما شاكلها ونحن لا نزعم يا صاحبي ان العرب في جاهليتهم لم يعرفوا النثر بـل نقول انهم عرفوه لكنه ضاع لصعوبته على الحفاظ وعدم تدوينه وكيف يجـوز لنا ان نتهم العرب في جاهليتهم بالجمود ونحن نعـلم انهم اتصلوا بالعراق وفارس في رحلاتهم التجارية والقرآن يخبرنا عن رحلة الشتاء والصيف الى الشام واليمن (لأيلاف قريش أيلافهم[1] رحلة الشتاء والصيف[2] فليعبدوا رب هذا البيت[3] الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف[4])

---

(١) سورة قريش (٢) راجع آخر سورة الجمعـة آية احدى عشر
(٣) راجع سورة النور آية سورة النور

وفي القرآن ايضاً اخبار كثيرة متفرقة عن احوال العرب التجارية والاقتصادية ولكي تكون على بينة مما نزعم يا صاحبي تعال واقرأ معي الآيات القرآنية التالية :

٢ (واذا رأو تجارة او لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً)

٣ (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وايقام الصلوات وأيتاء الزكواة)

ففي هذه الاخبار وسواها مما يضيق المقام عن ايرادها هنا دلالة واضحة على ان الامة العربية لم تكن امة همجية وانما كانت امة راقية عرفت التجارة والاقتصاد ، وكل امة تعرف هذه الشؤون وتمارسها ، لا بد لها من معرفة الكتابة لعقد الاتفاقيات التجارية وتدوين المبيعات والمشتريات ، الا ان معرفة العرب للكتابة يا صاحبي لم تزد شيئاً في قيمة الانتاج الادبي ، فلا بدعة اذاً اذا وقفنا من النثر الجاهلي موقف المتردد المتسائل ورفضنا كل ما ينسب اليهم من نثر على الرغم مما ينسبه الرواة ، وخلاصة القول أن العرب في عهد الانشاد عبروا عما كان يجول في خواطرهم من افكار وآراء عن طريق المخاطبة شعراً ونثراً ، لا عن طريق الكتابة التي لم تكن أداة من ادوات تدوين الآثار الادبية ، كما اسلفنا وهذا مما جعلهم يحفظون ما امكن حفظه

من انتاجهم الادبي عن ظهر قلب ، وراحوا يتناقلونه من عهد الى عهد ومن جيل الى جيل عن طريق الحفظ والرواية لا عن طريق التدوين والكتابه، ومما يؤيد زعمنا يا صاحبي أن العرب في جاهليتهم عرفوا الكتابة ، اتخاذ الرسول كتاباً يكتبون سور القرآن ، فأن لم يعرف هؤلاء الكتاب الكتابة في الايام التي سبقت ظهور النبي فمن علمهم الكتابة ؟ وهل علمهم اياها النبي ؟ وكيف يمكن ان يعلمهم النبي الكتابة وهو النبي الامي؟

ويمكننا القول ان العرب عرفوا في جاهليتهم النثر المطلق الذي يرسل على السجية دون ما تكلف ولا عناء . وفي القرآن نص صريح على معرفة العرب للكتابة نرى ان نورده لك هنا :

١ – (يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب العدل ان يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق الآية)

٢ – (وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مضمونه الآية) .

اضف الى هذا قوله تعالى :

٣ - (اقرأ بسم ربك الذي خلق [١] خلق الانسان من علق [٢] اقرأ وربك الاكرم [٣] الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) .

اجل يا صاحبي لقد عرف العرب في جاهليتهم الكتابة وكانوا يؤرخون بعامي الفيل والفجار ، وظلوا كذلك حتى جاء عمر بن الخطاب وامرهم ان يؤرخوا بعام الهجرة . ومنذ ذلك الحين اصبحت الكتب والرسائل تؤرخ بهجرة الرسول ﷺ .

والحق ان العرب لم يتركوا في العصر الجاهلي اي مدونات ذات قيمة ادبية لا في التاريخ ولا في غيره ، ولا يعني ذلك ان الخط والكتابة لم يكونا معروفين عندهما ولا شائعين ، كما يذهب الى ذلك بعض الباحثين [٤] ، فانهما - على ما يظهر -

---

(١) راجع سورة البقرة آية ٢٨٢ (٢) راجع سورة البقرة آية (٣) راجع سورة العلق .

(٤) انظر : Nicholsou , A Literary History of the arabs , 1930 P . 31

كانا شائعين الى حد ما ، وخاصة في البيئات المستحضرة ، اذ يروي صاحب الأغاني انه كان في الحيرة كتاب يتعلم فيه الصبية الكتابة[١] ، وقد جاء الاسلام وفي مكة سبعة عشر كاتباً[٢] وفي المدينة احد عشر[٣] . ويظهر ان معرفة الكتابة لم تختص بالبيئات المتحضرة فهناك نصوص مختلفة تدل على ان بعض اهل البادية كانوا يعرفونها[٤] وممن اشتهر بذلك اكثم بن صيفي[٥] حكيم تميم وخطيبها ، ومن يدري لعله هو الذي لقنها لابن اخيه حنظلة بن الربيع كاتب النبي ﷺ[٦] . ونذكر من الشعراء المتبدين الذين اشتهروا بالكتابة ومعرفتها في هذا العصر

---

(١) اغاني طبع دار الكتب ٢ / ١٠١

(٢) فتوح البلدان للبلاذاري طبع اورباس ٤٧١ .

(٣) نفس المصدر ص ٤٧٣ .

(٤) انظر عيون الاخبار لابن قتيبة طبع دار الكتب ١ / ٤٢ .

(٥) مجمع الامثال للميداني طبع المطبعه الخيرية ٢ / ٧٢ .

(٦) الوزراء والكتاب للجهشياري طبع الحلبي ص ١٢ .

المرقش الاكبر [1] وهو من بكر ، ولبيد بن ربيعة [2] وهو من بني عامر بن صعصعة . ولعل من الدليل على شيوع معرفة الكتابة بين البدو اننا نجد شعراءهم يصفون الاطـــلال كثيرا بنقوش الكتابة . يقول المرقش في قصيدة له معروفة [3] :

الدار قفر والرسوم كما
رقش في ظهر الاديم قلم

ويقول لبيد في مطلع معلقته المشهورة :

عفت الديار محلها فمقامهـــا
بمنى تأبد غولهـــا فرجامها
فمدافع الريان عرى رسمهـــا
خلقاً كما ضمن الوحي سلامهـا

والوحي : الكتابة ، والسلام : الحجارة البيض التي كانوا يكتبون عليهـــا ، وكانوا يكتبون ايضاً في عسب النخل وفي الجلد والاديم الذي مر عند المرقش ، ويستمر لبيد في معلقته فيقول :

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة طبع ليدن ص١٠٤ .
(٢) اغاني طبع الساسي ١٤ / ٩٠ .
(٣) المفضليات طبعة لاتل ص ٤٨٥ .

وجلا السيول عن الطلول كأنها

زبر تجد متونها أقلامهـــا

والزبر : الكتب ، ويقول الاخنس بن شهاب التغلبي[1] :

لابنة حطان بن عرف منـــازل

كما رقش العنوان في الرق كاتب

ويقول سلامة بن حنذل الفارس المعروف[2] :

لمن طلل مثل الكتاب المنمق

خلا عهده بـــين الصليب فمطرق

وقد ردد شعراء البادية هذه الصورة كثيراً في شعرهم[3] وهذا يؤيد ما نذهب اليه من أن الكتابة كانت معروفة بل شائعة في العصر الجاهلي ، ولسنا نعني طبعاً بشيوع الكتابة في تلك الايام كشيوعها في عصرنا هذا .

ولكن هذا الشيوع شيء وان العرب اتخذوها أداة لتدوين آثارهم الادبية شيء آخر .

أجل لقد عرفوها حقاً ، ولكنها معرفة بسيطة ، فـــلم

---

(١) المفضليات ص ٤١٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٦٠ .

(٣) انظر المفضليات ص ٢٦٣ وكذلك ص ٥٥٩ وما بعدها .

يكتبوا بها كتباً ، ولا قصصاً ، ولا رسائل أدبية ، وانما استخدموها في كتابة بعض اغراضهم التجارية والسياسية ، ولذلك لم يكن غريباً أن تشيع في مكة لانها كانت مركزاً تجارياً عظيما . ويحدثنا الجاحظ انهم كانوا يكتبون بعض عهودهم السياسية ، وكانوا يسمون تلك العهود المكتوبة « مهارق » [1] وقد ورد ذكر هذه المهارق في معلقة الحارث ابن حلزة مشيراً بها الى ما كتب من عهود بين بكر وتغلب اذ يقول :

واذكروا حلف ذي المجاز وما
قدم فيه ، العهود والكفلاء

حذر الجور والتعدي وهل
ينقض ما في المهارق الاهواء

ومن هنا يحق لنا ان نحكم ان العرب استخدموا الكتابة في العصر الجاهلي لاغراض سياسية وتجارية ، ولكنهم لم يستخدموها في اغراض ادبية خالصة تجعلنا نزعم انه وجد عندهم لون من الكتابة الفنية . والحق ان الكتابة لم تكن حينئذ تؤدي بجانب

---

(١) الحيوان للجاحظ طبع الحلبي ١ — ٦٩

اغراضها السياسية والتجارية اغراضاً فنية من تجويد وتحبير ، اذ لم تكن اكثر من كتابات ساذجة ادت اغراضاً خاصة في عصرها ، وانتهت بانتهاء هذا الغرض

على انه ليس بين ايدينا وثائق نستطيع ان ندعي بها ان الجاهليين عرفوا الكتابة الفنية انما الذي نستطيع ان ندعيه لهم — عن طريق الوثائق الصحيحة — هو الامثال فقد اكثروا من ضربها ، وهناك كتب مستفيضة تتخصص ببحثها . والى جانب الامثال نجد لهم خطابة وخطباً كثيرة ، وقد اخذت الخطابة عندهم صورتين : صورة عامة في منافراتهم ومجامعهم ، وأسواقهم وحروبهم ، وصورة خاصة في سجع الكهان ، وما كان ينزلق على السنتهم اثناء تكهنهم .

ومما لا ريب فيه ان طائفة كبيرة من الامثال الجاهلية سلمت لنا ، وساعد على ذلك تواترها على السنة الناس مما اتاح لها ان تحتفظ بصورتها ، ولم تحرف الامثال بل استمرت على صورتها التي ضربت عليها إلا ما عبثت به ايدي الرواة إبان عصر التدوين . واما الخطابة وسجع الكهان فقد ضاعت معظم نصوصها ، ولم تبق الا بعض قطع وبعض صيغ منثورة في ثنايا الكتب التاريخية .

اذاً ، عرف العرب النثر في جاهليتهم ، ولكن ما هذا النثر الذي عرفوه ؟ وما هذا النثر الذي نتحدث عنه ؟ انه ذلك الكلام الذي لم يوضع في اوزان وقواف ، وهو على ضربين : أما الضرب الاول فهو النثر العادي الذي يقال في لغة التخاطب وليست لهذا الضرب قيمة فنية الا ما يجري فيه احياناً من امثال وحكمة . واما الضرب الثاني فهو النثر الذي يرتفع فيه اصحابه عن لغة التخاطب الى لغة فيها فن ومهارة وبيان وهذا الضرب هو الذي يعنى النقاد في اللغات المختلفة ببحثه ودرسه وبيان ما مر به من أحداث وأطوار ، وما يمتاز به في كل طور من صفات وخصائص « وهو ينقسم الى قسمين كبيرين هما : الخطابة والكتابة الفنية - وهي ما يدعوها بعض الباحثين بالنثر الفني - وهي تشمل القصص المكتوب كما تشمل الرسائل الادبية المحبرة ، وقد تتسع فتشمل الكتابة التاريخية المنمقة .

وان من ينعم النظر في ما وصلنا من نصوص العصر الجاهلي يجد هذا الضرب من النثر يلعب دوراً مهما في حياة العرب حينئذ، وهو دور لا يقل كثيراً عن دور الشعر ، اذ كان عرب الجاهلية مشغوفين بالخطابة وضرب الامثال كما كانوا مشغوفين بالتاريخ والقصص الخيالي - وغير الخيالي - عن شعرائهم وفرسانهم

وملوكهم وكانوا يقصون ايضاً عن الفرس وابطالهم ، وورد في السيرة النبوية ان النضر بن الحارث كان يقص على قريش احاديث رستم واسفنديار[1] . ومعروف انهم كانوا يكثرون من القصص عن حروبهم وايامهم في جاهليتهم ، وكتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني خير مرجع يفسر هذا القصص الجاهلي . على انه ينبغي ان لا نعلق اهمية تاريخية واسعة على هذا القصص فان الرواة حرفوا فيه كثيراً قبل ان يأخذ شكله النهائي عند ابي الفرج وغيره من مؤلفي العصر العباسي . وآية ذلك قصة الزباء التي رويت في الكتب العربية عن هشام بن محمد الكلبي وما كان من موتها ، فانها قصة خيالية ، لا تتفق في شيء ووثائق التاريخ الروماني الصحيحة التي كتبت عن زنوبيا .

واذا كنا لا نستطيع ان نعتمد على هذا القصص في حوادث التاريخ فأولى لنا أن لا نعتمد عليه في وصف صورة النثر الجاهلي وبيان خصائصه الفنية لانه لم يكتب في العصر الجاهلي ، ولا في عصر قريب منه ، وانما كتب في العصر العباسي ، وما كنا لنتخذ صياغة العباسيين مثالا لصياغة الجاهليين . ومن اجل

(١) السيرة النبوية لابن هشام طبع الحلبي ١ / ٩٦ .

ذلك فاننا لا نستطيع أن نعتد من الوجهة الادبية – بما يروى عن هذا العصر من عناصر القصص والتاريخ ، لان الرواة حرفوا لفظه ، بل لقد حرفوا معناه على نحو ما حرفوا قصة الزباء ، ولو أن العرب كتبوا تاريخهم وقصصهم في العصر الجاهلي لاعتددنا بهذا الجانب من نثرهم ، ولكنهم لم يكتبوا شيئاً ، اما ما يروى عن هشام بن محمد الكلبي من انه رأى في بيع الحيرة بعض مدونات استخرج منها – في زعمه ، اخبار العرب [1] ، فاننا لا نستطيع الاعتماد على روايته والاحتجاج بها ، لان ابن الكلبي متهم فيما يرويه [2] ويكفي انه صاحب قصة الزباء الملفقة . على أننا لا ندري هل ما شاهده ابن الكلبي في الحيرة كان مكتوبا بالنبطية ، او السريانية التي كانت معروفة في الحيرة قبل الاسلام [3] وما دمنا بصدد درس النثر الجاهلي درسا دقيقا فلا بد من تتبع هذه الفروع الثلاثة من الامثال والخطابة وسجع الكهان ، لنقف على ما فيها من صناعة فنية وبراعة ادبية ...

---

(١) نظر الطبري طبع ليدن : القسم الاول ص ٧٧٠

(٢) اغاني طبع الساسي ٩–١٩

(٣) انظر كتاب اصل الخط العربي للدكتور خليل نامي ص ٤

الفصل الثانى

ايهما اسبق في الظهور الشعر ام النثر ؟..

قال لي صاحبي وهو يحـــاورني .. (ايهما اسبق في الظهور الشعر ام النثر ؟) .

قلت :(ان الشعر يسبق النثر في الوجود سبق تحكم العاطفة في الانسان دون العقل . واذا ما قلت الشعر لا اقصد الشعر الكامل في جميع عناصره ، وانما اقصد المحاولات الاولى لقوله ، دون ان انظر الى نشأته وطريقة هذه النشأة فيما عدا انه مصور للعواطف ، معبر عن الاحساسات ، مثير للذة تقدير الجمال) .

واذا كان قد ورد عن العرب غير هـذا فلانهم عنوا بالنثر نحواً غير الذي نعنيه نحن الآن ، عنوا به نثر الحديث في شؤون الحياة الهينة التي لا يحتاج المتحدث فيها الى اعمال الفكر ، وامعان النظر ، اليس هذا هو ما يدل عليه قول قائلهم :

« وكان الكلام كله منثوراً ، فاحتاجت العرب الى الغناء بمكارم اخلاقها ، وطيب اعراقها ، وذكر ايامها الصالحة واوطانها المنتزحة ، وفرسانها الامجاد ، وسمحائها الاجواد ، لتهز نفوسها

الى الكرم ، وتدل ابنائها على حسن الشيم ، فتوهموا اعاريض ، فعلموها موازين للكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً لانهم شعروا به »

ان في هذا التصوير وهما كثيراً ؛ اذ ظنوا علم الاوزان سابقاً لقول الشعر ، فانهم لم يقصدوا الى النثر الفني ، وانما قصدوا الى النثر الخطابي الذي يتناول مختلف شئون الحياة اليومية من بيع وشراء وطعام وشراب ، وصيد ورعى ، ونوم ويقظه ؛ الى غير هذه الامور التي تقوم عليها الحياة الانسانية الساذجة .

اما النثر الفني الذي يعبرون به عن رأي خطير ، او يرمون من ورائه الى امر عظيم ، او يعبرون به عن فكرة عميقة يعمدون الى تصويرها به ؛ لتقتنع بها العقول وتؤمن بها الافكار فهم يريدون فرض الرأي ، او الاقناع بالفكرة ، فلم يسعدوا بالوصول اليها .

وها نحن اولا نرى في ريفنا شعراء لا ينقص شعرهم خيال ولا تعوزه عاطفه ، ولا يحتاج الى حسن تصور ، وانما ينقصه اللفظ الصحيح ، ويعوزه الميزان السليم ، ويحتاج الى دقة التصوير وليس كل ذلك بسالب اياه معنى الشاعرية ، فعذره انه ينطق هذه اللغة ، ولو عرف غيرها لنطق بها ، وان موازينه وان لم

تكن سليمة فهي اقرب الى السلامة ، ودقة تصويره طريقها التأمل والتأنق : وكم من الشعراء المطبوعين تنقصهم دقة التصوير .

والحق يا صاحبي ان الشعر بذرة النثر الجاهلي والنثر الفني الجاهلي الذي يثير اللذة ، ويبعث على الاعجاب نادر ، وهو في مقداره اذا قيس الى الشعر ليس شيئا مذكورا ، واذا نظرنا اليه على اعتبار انه معبر عن العقل لم نجد له وجوداً واذا اغفلنا ناحية الوزن حق لنا ان نقول : ان الشعر هو البذرة الاولى للنثر ، لانه كله او جله خطب ، والخطب قوامها العاطفة ، على انها فيما نعتقد قليلة لا تكاد تذكر ، وما وصل الينا من النثر غير الخطب لا يعدو ان يكون حكما متفرقـــة ، أو أمثالا منتشرة املتها مناسباتها ، وخلقتها اسبابها ، يعتورها من الشك في نسبتها الى قائليها ما يعتور الخطب والقصص .

واننا نتساءل اكان للمضريين نثرا راق ام لا ؟

بصدد الاجابة على هذا التساءل يجدر بي ان اقول :

اني اخالف جمهرة من زعماء الادب يرون : « ان تاريخ الادب العربي يدل على ان قد كان للمضريين نثر ما ، بل يدل على انه قد كان للمضريين نثر ما ، بل يدل على انه قد كان لهم قبل الاسلام نثر وصل الى حد من الرقي لا بأس به » فأن

النثر يحتاج – اول ما يحتاج – الى الحضارة ومن مظاهرها الكتابة وقل فيهم الكاتب ، او قل انعدم فيهم الكاتب ولم تكن لهم حضارة تستأهل استخدام العقل في تصوير مظاهرها ، او وصف آثارها ، وان تكن فقد كانت تصور شعراً لسهولته ، وجمال نغمته ، واذا قلنا مع اولئك القائلين : ان العرب كان لهم في الجاهلية نثر فني ، فاننا سنفرض انه نثر عاطفي ، وهو ما اتفق على تسميته في العصور الادبية المتأخرة بالشعر المنثور.

ومما يؤيد رأينا نزول القرآن نثراً – واذا قيل لماذا انزل القرآن نثراً ولم ينزل شعراً ليكون التحدي به اقوى ؟

قلنا : انه جاء نثراً ليكون التحدي اقوى واقوى ، فدرجة النثر اقل من درجة الشعر عندهم ، فاذا جاء نثر اقوى من الشعر كان ذلك برهاناً قوياً على انه ارقى من اي نثر آخر .

وحينما وصف العرب القرآن الكريم بأنه شعر ، ووصفوا الرسول ﷺ بأنه شاعر كانوا على يقين بأن القرآن ليس شعراً ، وبأن الرسول ليس شاعراً ، فليست للقرآن سمة واحدة من سمات الشعر ليست له معانيه القائمة على الخيال المحض ، وليست له اغراضه المتعارفة ، وليست له اوزانه المرسومة عندهم ، فالقرآن لا يشارك الشعر في غير اللفظ ، وهي شركة محتمة في كل

كلام .

ولم يقل الرسول - وقد عاش بين ظهرانيهم ، وعرفوا جميع اطوار حياته كل المعرفة - بيتاً من الشعر ، وان جاء بعض كلامه منظوماً كالذي روي عنه .

انا النبي لا كذب ، انا ابن عبد المطلب

وانما ادعوا الدعوى لأنه ارقى من النثر الذي عرفوه .

ولهذا يرى بعض الادباء ان يعد من الشعر وان لا يعتبر من النثر ، ولكننا نرى خلاف ذلك ونعده من النثر .

اما فيما يتعلق في التوسع بمعنى الشعر اذا صح لنا ان نتوسع في معنى الشعر ولم نقيده بما قيده به العرب من انه الكلام الموزون المقفى ، وجعلناه الكلام المنبعث عن العاطفة ، والذي يقصد به صاحبه اثارة لذة السامع استطعنا ان نحكم بأنه اقدم من النثر دون ان يخالف في هذا الحكم من يزعم ان النثر اقدم ، لاننا سندخل في نطاق الشعر عندئذ الخطبة والقصة ، وهما تعتمدان على اثارة الشعور ، وتوافر الخيال ، على ان من العرب من وصف الشعر بأنه « تجيش به صدورنا فتقذفه على السنتنا » . وصفوة القول في اسبقية الشعر للنثر ، بعد كل هذا البسط نستطيع ان نقول : ان الشعر اسبق من النثر بجميع

فنونه ، اسبق من القصة والخطبة ، والحكمة والامثال والمقالة فقد اتخذه الناس منذ ادراكهم لمعنى الحياة المعبر عما يكنون والناطق بما يحسون ، والمصور لما تجيش به قلوبهم من انفعالات وما تختلج به افئدتهم من خواطر واحساسات ، فولجوا بابه ، واستخلصوا لبابه ، في حين احكم النثر الفني دونهم رتاجه ، وبالغ في ايصاد مغالقه لان هذا — كما سبق — عماد العقل والتأمل ومعين الفهم والتفهم . وانى لأمة من بداءتها وبداوتها كل اولئك ؟ ان ابناءها — ولا نستثني — يتيهون في مجاهل من الجهالة ، ويسيحون في صحاري من البداوة ، ولن يكون علم مكتسب مع جهالة مطبقة ، ولن يتفق فهم دقيق مع بداوة معرقة ، وها هم اولاء بعض سكان المجاهل الافريقية ممن لم تغزهم الحضارة ، ولم تفتح عقولهم المدنية ، لهم اغانيهم المعبرة عن آمالهم واناشيدهم المصورة لاشجانهم ، وهي دون شك شعر بمعناه الاعم الافسح ..

فلا علينا ان نقول بعد هذا العرض الواضح ، والبسط الضافي : ان الشعر ليس اسبق من النثر فحسب ، بل هو اسبق منه بآماد بعيدة ، تستوي في هذا الحكم جميع الآداب العالمية .

ولا يضيرنا في حكمنا ان يكون الشعر سطحي الخيال او

عميق ، ضيق الآفق أو واسعها ، متعدد الاغراض او محصورها ، ضعيف الاسلوب او قويه ، مختلط التركيب او منسقه ، مختل الوزن او مستقيمه ، فكل تلك تتبلور مع الزمن ، وتستقيم مع الحياة ، فأن كل موجود في هذا الوجود تعتوره اطوار الحياة المتعاقبة ، وتتداوله تقلبات الزمن وتغيراته ، كل موجود ينجم ثم يحبو ، ثم يدرج ... حتى يشارف الكمال ، ولا نقول حتى يصل الى قمة الكمال ، ثم تدول دولته ، وتخبو شعلته فيعود كما كان ..

واذا ما تحدثنا عن حال النثر الاولى وجب علينا ان نقول ليس امر النثر مغايراً لامر الشعر ، فلا بد انه كان في اول الامر سقيم الفكرة ، وان يكن وليدها ، قليل الجدوى ، وان يكن صادراً عن عقل وتدبر ، والناظر في النثر الجاهلي لايستطيع ان يحكم دون ان يرمى بالهوى بأنه رفيع المكانة خطير المنزلة من الناحية التفكيرية أو الاسلوبية أو الموضوعية ، مع ان ما وصل الينا — على فرض صحته — هو افضل ما قيل ، وابلغ ما ارتجل ، واحكم ما سجل ، والا لما حفظته الحوافظ ، وتحدث بجماله الرواة واعتنى بتسجيله المؤدبون والشداة .

على اني اكاد أوقن ان هذا النثر الذي يروي بعضه شيوخ

الادب – كصاحب الاغاني وصاحب الامالي واضرابها – وهو منسوب الى بعض الجاهليين ، وفي بعضه قصص وجمال تصوير ، او حكمة وتأنق في التعبير - في وضع الرواة والمحدثين الذين رغبوا في ان يرفهوا عن الخلفاء ، أو ان يشيدوا بعقول القدماء وحسبنا هذا الذي قدمناه ..

وما من شك في ان للشعر على النثر الفضل الاكبر . وقد اتفق الادباء – الا القلة الضئيلة – على ان الشعر جملة افضل من النثر جملة، ونحن ممن يرون هذا الرأي ، ونقيم الادلة على سداده وصوابه فنقول .

ان للقرآن الفضل الذي لا ينكر على الشعر – وان العرب طرا حينما بهرهم القرآن ، واخذتهم بلاغته زعموه شعراً ايماناً منهم بأن الشعر افضل من النثر ، وهذا الكلام الذي يحاجهم به الرسول (صلعم) ويتحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله اجود من نثرهم، واذن فما عليهم الان يدعوا انه شعر ، وان فقد مقوماته من خيال ووزن وقافية وموضوع واسلوب. وما من احد يستطيع ان ينكر فضل الشعر على الفنون الجميلة . والشعر احد الفنون الجميلة ، ولكنه منها واسطة عقدها وبدر فراقدها، فأين منه النقش والتصوير ، والنحت والموسيقى ، ان فيه الى جانب نظمه ورصفه

صوراً تبهر مهرة المصورين ، وجمالا يسحر نوابغ الرسامين ، والموسيقى لا تسمو الا به ، والغناء لا يحلو الا فيه .

انه يتألق بين الفنون فيفيض عليها حسناً ، ويمنحها وضاءة ولألأ ، فأي فن جميل ليس للشعر فيه الأثر الرائع الجميل ؟ ولا ريب في ان موضوعات الشعر اسمى من موضوعات النثر ، لأنها اعلق بالقلب واقرب الى النفس من موضوعات النثر ، بل من موضوعات الفنون الجميلة التي لا تعتمد عليه ، والنثر اذا تجاوز موضوعه ، وحل في غير افقه ، واعتدى على موضوعات الشعر عد متطفلا ، وقيل عنه اعلأ لشأنه مع هذا التطفل : انه شعر منثور ، لانه يحمل موضوع الشعر واخيلته ، ويقتبس الفاظه وموسيقاه ، وإن لم تسم الى موسيقى الشعر .

ولا نلجأ في حججنا الى ما ذكره ابن رشيق في كتاب العمدة من ان الشعر يفضل النثر لأسباب فنية ، وان كلام العرب نوعان : منظوم ومنثور ، ولكل منهما ثلاث طبقات : جيدة ومتوسطة ورديئة ، وانه اذا اتفقت الطبقتان في القدر وتساوتا في القيمة ولم يكن لاحداهما فضل على الاخرى كان الحكم للشعر ظاهراً في التسمية ، لأن كل منظوم احسن من كل منثور من جنسه ، فالدر وبه يشبه اللفظ اذا كان منثوراً لم

يؤمن عليه ، ولم ينتفع به في الباب الذي كسب له ، وانتخب من اجله ، وكذلك اللفظ اذا كان منثوراً تبدد في الاسماع ، فاذا اخذه سلك الوزن وعقد القافية تألفت اشتاته ، وازدوجت فرائـــده .

فمن ادبائنا من يصف هذا القول بانه كلام ضعيف ، وان يكن بيان ذلك الاديب اضعف من بيان ابن رشيق ، وليس هذا مجال تفصيل نقده .

واما أولئك الذين يقولون ان موضوعات النثر اخطر من موضوعات الشعر جد واهمين ، فالشعر يتناول الكون باجمعه ، وموضوعه كما قال غيرنا : الله والانسان والطبيعة ، فهو كل ما في هذا الوجود ، على انه يستطيع ان يتناول جميع موضوعات النثر ، بـــل هو الآن يتناول اعنف موضوعاته كالمباحث الفلسفية ، ويعتبر الشاعر الذي لا فلسفة في شعره شاعراً سطحيا لا : بل قد يبلغ بـــه اذا فلسفة ما لا يبلغه بالنثر ، وهذه لزوميات ابي العلاء تجمع بين قوة العقـل والمنطق ، وبين قوة التصوير وحسن الفن ، والشعر السياسي كان ولا يزال اقوى دعائم الدعاية السياسية ، ويكفي للدلالة على ذلك ان معـاوية حين اراد ان يمهد للبيعة لأبنه يزيد استعان لهـا بشعر مسكين

الدارمي ، ذلك الذي يقول فيه :

الا ليت شعري ما يقول ابن عامر
ومروان ام مـــاذا يقول سعيد ؟
بنى خلفأ الله مهـــلا فأنما
يبوئها الرحمن حيث يريـــد
اذا المنبر الغربي خلاه ربه
فأن امير المؤمنين يزيـــد

وان بيت مروان بن ابي حفصه في الاحتجاج على العلويين وهو :

انى يكون – وليس ذاك بكائن –
ابنى البنـــات وراثة الاعمـام ؟

كان اشد على آل علي رضي الله عنه من ظبات السيوف ، وأسنة الرماح ، بل كان هذا البيت دعامـة من دعائم الدولة العباسية .

وانك لتجد الحكمة وحقها ان يكون النثر معينها مسجلة شعراً ونثراً ، فتحكم لاول وهلة بأنها شعراً افضل منها نثراً ، وها هو ذا المثال الذي نؤيد به رأينا .

ولعلي اوفي البحث حقه اذا ما طرحت بين يديك هـــذه

الموازنة بين شعر ونثر :

١ – قال عبد الله ابن الزبير حينما قتل عبد الملك بن مروان اخاه مصعباً من خطبة ينعي فيها اخاه ويؤبنه ، وتكاد هذه الخطبة تكون اروع خطبه ،والخطبة اقرب من النثر الى الشعر : « إنما التجلد والسلوة لحزمأ الرجال ، وان الهلع والجزع لربات الحجال » .

وتناول ابو تمام الطائي هذا المعنى في تعزيته مالك بن طوق عن اخيه القاسم ، فقال .

٢٥ : خلقنا رجالا للتجلد والاسى
وتلك الغواني للبكاء والمآتم

فكان البيت خيراً من الفقرة لاسباب كثيرة منها :

١ – لنظمه وجرسه الموسيقي ، وهذا فضل لا ينكره الا معاند مكابر ، ومن لا تطربه الموسيقى ، ولا يملك سمعيه الجرس والغناء .

٢ – لقلة كلماته عن كلمات النثر مع ان الشاعر مقيد بالوزن الذي قد يستدعي منه ان يزيد الفاظا ، حتى يفي المعنى حقه ، وحتى لا يوصف شعره بالغموض والتقيد ، فللوزن من الاحكام ما ليس للنثر ، فلهذا الحرية المطلقة ، ولذاك

٣ – لدقة المعنى ، فقد وصف الشاعر قومه ونفسه بأنهم خلقوا رجالا ، وفي الجملة قصر جميل ملحوظ ، فكائن اعداءهم ليست لهم هذه الصفة ،وفيها فخر نبيل واضح في حين ترك الخطيب هذا المعنى ؛ وقال ان التجلد والصبر والاسى المكتوم خليق بالرجال ، او خليق به الرجال ، فجمع بين الصفتين الجديرتين بخلق الرجال عند فداحة الخطب وجلال الرزء ، اما الخطيب فجمع بين التجلد والسلوة ، وما ادري كيف يسلو الاخ اخاه ، وبخاصة اذا كان هذا الاخ هو البطل العظيم ، والرجل الكامل مصعب بن الزبير ؟ والفرق عظيم بين الاسى والبكاء ، فالاسى للرجال ، والبكاء للنساء ، اما السلوة التي قرنها عبد الله بالتجلد فلا موقع لها هنا ، في حين ان المآتم وقد عطفت على البكاء ادت المعنى اسدى اداء ، فالمآتم تقام للنساء يبكين فيها ويندبن ، ليثرن الرجال للاخذ بالثأر ولغسل العار وخص الشاعر الغواني بالبكاء ليدل على فداحة النازلة ، وشدة الكارثة ، ومن تبكيه الغواني خليق ان يبكيه غيرهن .

اما فقرة عبدالله فلا تشتمل على قليل من ذلك الكثير من المعنى ، كما ان الفقرة على الرغم من انها مسجوعة لم تتم نغمة

وجرسا وموسيقا ، وقول الخطيب ربات الحجال كناية دفعه اليها التكلف والسجع ، واجمل منهـــا دون ريب الغواني ، والهلع والجزع معناهما واحد ، فلم يأت الخطيب بجديد سوى التطويل الذي لا يدعو اليه داع غير رصف الجملة ، واقامة السجعة .

٤ - وهناك فوق ما قدمنا فروق تحس بها وتدركها دون ان تستطيع لها تعليلا ، ففي الاشارة الى الغواني بتلك جمال ، ولكن كيف نعلله ؟ اتقول : انـــه اراد تعظيمهن بالاشارة البعيدة اليهن ؟ ولم لا ؟ السن غواني ؟ ام نقول : ان المآتم كانت منه قريبة بعيدة ؟ ام نقول : انه كان بين صفين من الرجال والنساء ، فحدث الرجال بقوله : خلقنا رجالا : والتفت الى النساء فأشار اليهن قائلا : وتلك الغواني ..؟

(ب)

وهذا مثل اختلف فيـه النقاد ، فهناك من فضـل النثر ، وهناك من فضـل الشعر ، واننا من اصحـاب الرأي الاخير ، وسنورد الرأي الاول ، ثم نرد عليه ونفنده ، وللقارىء الحكم بعدئذ .

قال عمر العتبي : العقل عقلان عقل تفرد الله بصنعه وهو

الأصل ، وعقل يستفيده المرء بأدبه وهو الفرع ، فاذا اجتمعا قوى كل منهما صاحبه تقوية النار في الظلمة للبصر .

وقال احد الشعراء :

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومصنوع
ولا ينفع مصنوع اذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

زعم صاحب الرأي الاول ان الشاعر « كرر كلمتي مصنوع ومطبوع على غير داع ، وقد سلمت الاولى من ذلك التكرار وكلمة مصنوع في الشعر تقابل كلمة مكتسب في النثر ، ومكتسب اليق بموضعها ، وادق في الدلالة على ما يراد منها ، فالعتبي ادق عبارة واحكم تأليفاً واسلم من التكرار » ثم قال: « قسم كل منهما العقل قسمين ، وفاضل بينهما ، ولكنهما اختلفا في طريق المفاضلة ، فالاول ذكر ان القسمين يتعاونان اذا اجتمعا ، ومثل لهما بضوء النار يقوي البصر في الظلمة ، وذكر الآخر انهما اذا افترقا لم يغن المكتسب شيئاً ، ومثل بنور الشمس لمن لا يبصر ، فقد اختلفا في اجزاء المعنى ، والاول بين حالة اجتماع العقلين ، والآخر بين حالة افتراقهما ، والحالة التي ذكرها العتبي اقرب الى الواقع ، وآلف عند الناس ، فانهم

يبتغون دائماً تقوية العقل الموهوب بما يكتسب من تجارب ويستفاد من علم ، ولا يطمع احد ان يفيد غير العاقل بالتعلم شيئاً » فاذا ناقشنا هذا الرأي لنبين ضعفه قلنا :

١ – كان الشاعر اقدر من ناحية التأليف والصياغة من الكاتب ، فقد اوجز دون اخلال بالمعنى في حين اورد الاول في عبارته ما يمكن ان يسمى حشواً ، اذ يقول :

« عقل تفرد الله بصنعه » كأن هناك عقلا اشترك فيه مع الله سواه ، هذا الى ان الفرع جزء من الاصل وليس قسيما له كما يقول :

٢ – عندي ان تكرار مصنوع ومطبوع فوق انه اكسب البيت جرساً جميلاً ، وموسيقا عذبة ، ومطابقة مستساغة فيه معنى التوكيد ، واذن فليس من التكرار المعيب .

٣ – تشبيه الشاعر ادق واظهر في بيان فضل العقل المطبوع على المصنوع ، على ان الاول وقع في خطأ فكري ، فالنار لا تزيده قوة البصر ، وانما تخفف شدة الحلكة ، وتدفع اسراف الظلام

٤ – كلمة مصنوع افضل من مكتسب التي يطلبها صاحب الرأي الاول ، افضل ليطابق بها كلمة مطبوع ، على انها من الفاظ الأدب والشعر ، فيقال شاعر مطبوع وشاعر مصنوع

٥ – هذا الى ان الفاظ الشعر أقل من كلمات النثر ، والى

ان لموسيقى الشعر رنيناً يسمع الاذن رنين الجمال .

اما اسباب رجاحة الشعر للنثر : فهي ليس كل شعر خيراً من كل نثر . بل لا بد من اجتماع عدة عوامل مرجحة للشعر فوق الخيال والوزن ، فوجه الموازنة كثيرة متنوعة منها : الاسلوب ومطابقة الكلام للواقع ، وائتلاف الالفاظ واتساقها ومناسبتها للموضوع ، والاقلال من الزخارف بجميع انواعها ، فانها قد تحجب المعنى ، او تسيء الى الفكرة ، فالجمال في المفاضلة فسيح ، وعناصر الموازنة كثيرة .

ولا نغالي اذا ما قلنا ان بعض النثر يفضل بعض الشعر . ومن النثر الذي يفضل الشعر ، تلك الحكمة الجاهلية :

« المرء باصغريه » واكتفى بهذا الجزء منها فهي افضل من قول الشاعر :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده

فلم يبق الا صورة اللحم والدم

اما اوجه التفضيل فكثيرة منها : الايجاز ، فالحكمة كلمتان والشطر الاول من البيت ، وهو في الحق موطن المفاضلة ، خمس كلمات والحكمة اكثر صدقاً ، لان المرء يظهر علمه او جهله ، وحلمه او حمقه باصغريه ، وان يكونا نصفيه ، ولتلك

الكتابة اللطيفة الدالة على علم باعضاء الانسان ، فأصغر الأعضاء القلب واللسان ولعدم التكرار كما نرى في الشطر اذكر كلمة « نصف » وكدقة كلمة المرء ، لانها اشمل من كلمة الفتى ، ولعدم الغلو في المبالغة التي زادها الشاعر بروزا بشطره الأخير .

والقول الفصل في هذا الموضوع ان الشعر يعتمد على لغة العاطفة والوجدان والخيال وان النثر يعتمد على لغة العقل ، فيصبح العقل حينئذ الهادىء الى الانشاء والاختراع ، وعليه يعتمد النثر في تسجيل ما ينشىء ، في حين ينبعث الشعر كما قدمنا من نبعة بعيدة كل البعد عن هذه السبيل تلك النبعة هي العاطفة وهي الشعور .

ولذلك نجد الشعر الفلسفي والمعتمد على المنطق متأخراً في نشأته عن الشعر العاطفي ، لانه يتخذ العقل رائداً له ، ولا يعول على العقل ذلك التعويل الا الشعب المتمدين انظر الى الشعر الجاهلي تجده خالياً من المعاني الفلسفية ومن النظرات العميقة ، الا للقليل من الشعراء الذين نظروا في الكون ، وتأملوا في الوجود ، فجاءوا بمعان لا يقام لها وزن اذا قيست الى معاني شاعر عاش في حضارة ، هي احدى آثار العقول والافكار .

الفصل الثالث

قدم القصة في الادب العربي

قال لي صاحبي وهو يحاورني :

(أنا اكثر منك تذوقاً للأدب واسلم ذوقاً وأصوب رأياً وأصدق منك حكماً) .

قلت :

(وما دليلك على هذا الادعاء وما برهانك على هذا القول الهراء) .

قال :

(يبدو لي انك لا تستسيغ ادب الدكتور طه حسين عميد الآداب العربية في عصرنا هذا وتنكر على هذا الاديب ما عنده من عبقرية وشهرة لا تجارى على الرغم من طلاوة اسلوبه وجمال حديثه وروعة أنتاجه و كثرة بنات أفكاره المنتشرة في شتى مؤلفاته) .

قلت :

(أنا لا انكر على الدكتور طه حسين يا صاحبي ما وهبه

الله من العبقرية والنبوغ وما ساعده عليه الحظ من الشهرة وذيوع الصيت حتى اصبح اديبنا اشهر من نار على عـــلم ولكن الشهرة في الشيء بعيدة عن البراعة فيه بعد الارض عن الشمس اي ان الشهرة في فن من الفنون شيء والبراعة في هذا الفن شيء آخر ولعل في ضرب بعض الامثال اقناع لك بصحة هـذه النظرية ولعلك تعلم أن ابا الطيب المتنبي كان اشهر شعراء العربية في عصره ولم يكن أشعر اولئك الشعراء بل كان بينهم من هـو اشعر منه واقل شهرة منه واخص بالذكر منهم ابو فراس الحمداني شاعر بني حمدان وشاعر الوجدان في ذلك العصر . وفي عصرنا هذا تألق نجم احمد شوقي وذاع صيته وطبقت شهرتـــه الآفاق حتى لقب بأمير الشعراء واصبح أشهر شعراء عصره ولم يكن اشعرهم . وكان الشاعر الوجداني حافظ ابراهيم أفيض من صاحبه شوقي شاعرية وأصدق تصويراً وادق تعبيراً ومـع ذلك فلم يتح لحافظ ابراهيم ان يصيب من الحظ ما بلغه صاحبه شوقي ولم يقدر لحافظ ابراهيم ان يبلغ من الشهرة مـــا بلغه صاحبه شوقي وفي هذا اكبر دليل على ان الشهرة حظوظ وعلى ان الفرق شاسع بين الشهرة في الشيء والبراعة فيه) .

قال صاحبي :

(انك تتحامل على الدكتور طه حسين وتذمه وتقدح فيه بطريقة غير مباشرة . ورغم تحاملك على هذا الاديب فما زلت عند رأيي فيه وما زال اعجابي به لا يدانيه اعجاب ومنذ زمن غير بعيد قرأت من كتبه « المعذبون في الارض » « الوعد الحق » « شجرة البؤس » « احلام شهرزاد » « الحب الضائع » « الايام » « وفلسفة ابن خلدون الاجتماعية » فزاد اعجابي به واخذت بروعة حديثه وطلاوة أسلوبه) .

قلت :

(لا شك يا صاحبي ان طه حسين اشهر كتاب العربية في عصرنا هذا وليس بابرعهم وانت اذا تقصيت الحقيقة وحكمت العقل في الحكم على الادباء والكتّاب وجدت بين ادبائنا من هو ابرع من الدكتور طه حسين واكتب منه واكثر منه ابتكاراً ولا ريب في ان الدكتور طه حسين اديب مشهور وهو اشهر من ان يعرف وهو محدث لبق بارع عذب الالفاظ له اسلوب طلي جذاب كثير اللف والدوران يعطيك المعنى القليل في اللفظ الكثير)

قال صاحبي

(اراك لم تزد الا تحاملاً على هـــذا الاديب فلك ما ترى

وللناس في ما يعشقون ويكرهون مذاهب وارى ان نترك هذا الجدل البيزنطي وان تنتقل بنا الى الحديث عن قدم القصة في الادب العربي وان تثبت لنا وجود هذه القصة او على الاقل وجود جذور لهذه القصة في الادب الجاهلي)

قلت :

. (كان عبد الله ابن المقفع يا صاحبي اول من فتح باب القصص في الادب العربي في مطلع العصر العباسي الاول في كتابه « كليله ودمنه » بمعناه الفني الواسع الصحيح لكننا نرى ان ظهور القصة سبق ابن المقفع بظهوره في ظل الجاهلية على السنة الحيوان . وبين ايدينا قصة طريفة من تراث العصر الجاهلي . وتعطينا هذه القصة يا صاحبي صورة صادقة عن ذلك العصر ، ولم نعثر في الادب الجاهلي في شعره ونثره اصدق منها في التعبير عن العقلية في تلك الايام والبيئة العربية وفي التمثيل على الأدب الجاهلي . وقد جاءت هذه القصة على السنة الحيوان واشخاصها ارنب وثعلب وضب ، فالارنب يتمثل لنا كائناً ضعيفاً هضم حقه ، ولا يقبل على نفسه هذا الظلم فطالب بحقه . واما الثعلب فيمثل لنا كائناً قوياً يظلم سواه ، ويبيح لنفسه هضم حقوق الآخرين ، ويقوم الضب بدور

القاضي الحكيم في الفصل بين المختصمين . وارى إن اضع امامك هذه القصة الطريفة لتقف بنفسك على ما فيها من حوار جميل .

الارنب والضب

زعموا فيها :

ان الأرنب التقطت ثمرة فاختلسها الثعب فأكلها فانطلقا الى الضب .

فقالت الارنب يا ابا الحصين — فقال سميعاً دعوت
قالت اتينا لنختصم اليك — قال عادلاً حكمتما
قالت اخرج الينا — قال في بيته يؤتى الحكم
قالت اني وجدت ثمرة — قال حلوة فكليها
قالت فاختلسها الثعلب — قال لنفسه بغى الخير
قالت فلطمته — قال بحقك أخذت
قالت فلطمني — قال حر انتصر
قالت فاقضي بيننا — قال قد قضيت

فذهبت اقواله مثلا .

وكذلك سبق القرآن ابن المقفع في سرد القصص على ألسنة الطير والحيوان . كقوله تعالى .

(١) حتى اذا اتوا على واد النمل قالت نملة ياايها النمل ادخلوا

(١) راجع سورة النمل آية ١٨ — ٢٠

مساكنكم ليحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى والدي وان اعمل صالحاً ترضاه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين) .

(وتفقد الطير فقال مالي لا ارى الهدهد أم كان من الغائبين)

ونحن لا ننكر على ابن المقفع يا صاحبي فضله على القصة العربية وانصافاً اليه نقول ان من طرقوا باب القصة لم يتعدوا الحد الذي وصل اليه ، وربما قصروا عنه .

انتهى الجزء الاول

اسئلة

١ – اثبت او انفي صحة نسبة النثر الجاهلي ؟.

٢ – هل عرف العرب في جاهليتهم الكتابة ام لا ؟.

٣ – ايهما اسبق في الظهور الشعر ام النثر ؟.

٤ – اصحيح ما يقال من ان الشعر بذرة النثر الجاهلي ؟.

٥ – اكان للمضريين نثراً راق ؟.

٦ – هل نزل القرآن شعراً ام نثراً ؟.

٧ – تحدث في التوسع في معنى الشعر ؟.

٨ – تحدث باسهاب عن سبق الشعر للنثر ؟.

٩ – تحدث باسهاب عن حال النثر الاولى ؟

١٠ – تحدث ما امكن عن فضل الشعر على النثر ؟.

١١ – تحدث ما امكن عن فضل القرآن على الشعر ؟.

١٢ – تحدث بتوسع عن فضل الشعر على الفنون الجميلة ؟.

١٣ – تحدث عن سمو موضوعات الشعر ؟.

١٤ – ايهما اكثر خطورة موضوع الشعر ام موضوع النثر ؟

١٥ – وازن بين النثر والشعر ؟.

١٦ – تحدث عن رجاحة الشعر للنثر ؟.

١٧ – على اي اللغات يعتمد الشعر ؟.

١٨ – على اي اللغات يعتمد النثر ؟.

فهرست الكتاب

صفحه

١ – كلمة لا بد منها ٢

٢ – المصادر والمراجع ٣

٣ – اهداء الكتاب ٦

٤ – فاتحة الكتاب ٨

٥ – الباب الاول : النثر في عهد الانشاد

الفصل الاول

٦ – صحة نسبة النثر الجاهلي ١٢

الفصل الثاني

٧ – ايهما اسبق في الظهور الشعر ام النثر ٣٤

الفصل الثالث

٨ – قدم القصة في الادب العربي ٥٢

انتظروا الجزء الثاني من سلسلة

النفائس

تبحث في الشعر والنثر تهم الطالب والباحث والمدرس

•

اطلبوا سلسلة النفائس من

شركة فرج الله للمطبوعات

ومن عموم المكتبات

دار الهلال للطباعة

شارع بشاره الخوري – بناية نفاع

تلفون المطبعة ٢٥٤٨٧

المؤلف
ملكية بائعة الكتب
الجامعة الأمريكية
بيروت

٤

النفائس

سلسلة أدبية تبحث في الشعر والنثر
تهم الطالب والباحث والمدرس

مراحل النثر القديم

الجزء الثاني

بقلم

طه محمد القاضي

(ليسانس في الادب العربي)

حقوق الطبع محفوظة

بيروت — حزيران ١٩٥٥

الطبعة الاولى

الفصل الرابع

الامثال القديمة

قال لي صاحبي وهو يتثائب والكرى يداعب اجفانه ويرسل ابتسامات السخرية والأستهزاء والاذدراء .

(الآن ظهر الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً)

قلت :

(من طبيعة الحق ان يظهر يا صاحبي ومن طبيعة الباطل ان يزهق والحق يعلو ولا يعلى عليه . ولكن ماهذا الحق الذي ظهر؟ وما هذا الباطل الذي زهق ؟)

قال صاحبي

قدر لي في هذا الاسبوع ان اقف على كتابك « احاديث الامسيات » او قدر لكتابك « احاديث الامسيات » ان يقع بين يدي في هذا الاسبوع . ويبدو لي من مطالعة هذا الكتاب الصغير انك تسير على نفس القاعدة التي يسير عليها الدكتور طه حسين في كتاباته وانك تجاريه في اسلوبه وتحاول تقليده في هذا الاسلوب ما استطعت الى ذلك سبيلا . ولا ادري ما السر في

حملتك على هذا الاديب الذي تحاول ان تنهج نهجه ولا ادري ما الدافع الذي يدفعك الى ان تحاربه بسلاحه)

قلت

(الم اقل لك اكثر من مرة يا صاحبي ان الدكتور طه حسين اديب مشهور لا يجديني تحاملي عليه نفعاً ولا يسبب لي كرهي اليه ضراً ولا اطمع في محاربة من تربع على عرش الادب وقدر له الحظ أن يرتقي الى ذروة هذا الادب وما زلت اهيء نفسي وابحث عن الوسائل التي تمكنني من السير في بداية هذا الطريق .

وليست اساليب الكتابة ومفردات اللغة ملك الدكتور طه حسين وامثاله من الكتاب والادباء ، ولكنها ملك كل اديب وكاتب ، وادوات طيعة في يد كل كاتب واديب ، يتصرف بها كيف يشاء وينحو بها النحو الذي يريد .

قال صاحبي

(دعنا من الدكتور طه حسين ومن الحديث عنه وعد بنا الى ما نحن بصدده وحدثنا عن الامثال القديمة واوجز الحديث في هذا الموضوع

قلت

(بين يدينا ثروة نفيسة يا صاحبي مما ينسب الى العصر الجاهلي من الامثال نضعها بين يدي القارىء بشيء من الايجاز والتحفظ مجتهدين في الغربلة والنخل قدر الامكان ، علنا نثبت منها ما يصح ان ندعوه وثيقة نثرية ، يعتمد عليها مؤرخو الادب ولا سيما النثر منه . ونحن لا نزعم يا صاحبي أن ما نقله لنا الرواة كالمفضل الضبي وابي عبيدة والاصمعي من الامثال وليد العصر الجاهلي وحده ، لكننا نرى ان هذه الامثال قيلت في العصر الجاهلي وصدر الاسلام وهي تصور لنا البيئة البدوية القديمة .

ويبدو لنا ان الرواة لم يكتفوا بنقل هذه الامثال كما هي ، وبصيغتها الاصلية ، بل انهم هذبوها واقاموا اود بعضها الاعرابي وجاء هذا التراث الضخم من الامثال بمثابة عبارات تضرب في حوادث مشبهة للحوادث الاصلية التي جاءت فيها ، وقد عُني علماء العصر العباسي بدراستها ، وكان في طليعتهم المفضل الضبي وابو عبيدة ، ثم جاء من بعدهما ابو الهلال العسكري في كتابه (جمهرة الامثال) والميداني في كتابه (مجمع الامثال) وهو يقول في مقدمته انه رجع في تأليفه الى ما يربو على خمسين كتابا

وقد درج كل من الفوا في الامثال على ان يرتبوها حسب حروفها الاولى على نحو ما ترتب المعاجم الفاظها ، ولذلك تراهم

يوزعونها عادة تسعة وعشرين بابا بعدد ابواب الحروف الهجائية.

وهم بعد هذا التوزيع يفسرونها ويقصون احيانا حوادثها التي جاءت فيهـــا معتمدين على ضروب من الظن والتخمين مما جعل الاستاذ نيكلسون يزعم ان قيمة الامثال محدودة بالنسبة للعصر الجاهلي [1] . وله الحق فيما يزعمه فقد طال العهد بين العصر الجاهلي وبين عصر هؤلاء المفسرين ، وانه لينبغي ان نثني على على صنيعهم ، ولكن مع شيء من الحذر في الاخذ بتفسيرهم وقصصهم ما دمنا نتهم القصص الجاهلي عامة وما نسب الى عرب الجاهلية من اخبار واحداث

وثم مشكلة اخرى ينبغي ان نلتفت اليها في بحث الامثال وهي أن كثيراً منها مبهم غامض لا يكاد الانسان يفهمه الا اذا رجع الى شراح الامثال يستعين بهم ، فمن ذلك قول العرب « بعين قارينك » فان معناه اسرع ، وهو معنى لا يفهم من اللفظ بتاتاً ، وقد علق ابو هلال العسكري على هذا المثل بقوله هو من الكلام الذي قد عرف معنـاه سماعاً من غير ان يدل

(1) Nicholson Lil, Hist, of Arabs, P. 31

عليه لفظه [1] وبجانب هـذا النوع الذي لا يدل عليه لفظه نجد نوعاً آخر اضطرب الشراح في تأويله وفهمه على نحو ما نجد في هذا المثل : « لا يعرف الهر من البر » فقد قال قوم البر الفأره: ليستقيم لهم المعنى مع الهر [2] ، وقال بعض الكوفيين في تفسيره « لا يعرف من يبر عليه من يبره [3] . ونقل السيوطي عن ابن فارس انه قيل : « الهر دعاء الغنم والبر سوقها وقيل : الهر ولد السنور والبر ولد الثعلب [4] . على انه ينبغي ان نعلم ان هذه الامثال الغامضة قليلة ، اما الكثيرة فواضحة بينة .

وقد اكثر العرب من صنع الامثـــال وضربها في جميع احداثهم وما يقصون من اجتماعهم وحياتهم في الحرب وفي السلم من نحو : ما يوم حليمة بسر — قلب له ظهر المجن — قبل الرماء تملأ الكنائن — قطعت جهيزة قـــول كل خطيب — ماء ولا كصداء — استنوق الجمل — مرعى ولا كالسعدان ، وغير ذلك كثير .

وهناك جماعة اشتهرت في العصر الجاهلي بكثرة ما انزلق على

---

(١) جمهرة الامثال للعسكري على الهامش (٢) الجمهرة لابن دريد طبع الهند ١ / ٩٨ مجمع الامثال طبع المطبعة الخيرية ١ / ١٦٨ (٣) نفس المصدر ١ / ٨٩ (٤) المزهر للسيوطي طبع ١ / ٥٠٠

السنتها من هذه الامثال ، وممن عرف بذلك لقمان عاد ، وهو غير لقمان الحكيم الذي جاء في القرآن الكريم [1] . وتذهب دائرة المعارف الاسلامية - في مادة لقمان - الى ان شخصية لقمان مرت بثلاث مراحل : (١) مرحلة جاهلية وفيها نجد لقمان عاد ، صاحب قصة النسور ، اذ يزعمون انه عاش عمر سبعة نسور كلما مات نسر قام بعده نسر ، وكان آخر هذه النسور لبد الذي ذكره الشعراء كثيراً في اشعارهم [2] (٢) ومرحلة قرآنية وفيها نجد لقمان صاحب السورة الخاصة به ، وقد ربط المفسرون بين لقمان هذا وبين بلعم الحكيم الاسرائيلي فظنوا انه هو لقمان المذكور في القرآن والدليل على ذلك انهم ينسبونه على هذا النحو لقمان بن باعورا وهو نفس نسب بلعم الاسرائيلي (٣) ثم مرحلة متأخرة وهي مرحلة مرجلة نسج فيها حول لقمان قصص كثير على نحو ما نجد في كتاب «امثال لقمان» وهو مكتوب باسلوب مبتذل .

---

(١) انظر البيان والتبيين للجاحظ (الطبعة الاولى) نشر السندوبي ١٣٦/١ وكذلك خزانة الادب للبغدادي طبع بولاق ٢ / ٧٧

(٢) انظر كتاب المعمرين لابي حاتم الجستاني طبع مطبعة السعادة ص ٣ ، وكذلك حياة الحيوان للدميري طبع المطبعة الخيرية ٢ / ٣٠٦

ولا تستطيع ان تسلم بما تقوله دائرة المعارف الا اذا سلمنا بان لقمان عاد هو نفس لقمان المذكور في القرآن الكريم وليس بين ايدينا ما يثبت ذلك ، بل على العكس نرى علماء العرب يفرقون بينهما دائماً ، وقد روت كتب الامثال عن الاول بعض امثال له [1] بينما روى الامام مالك في كتابه « الموطأ » بعض امثال لقمان الحكيم . ونحن نجد كثيراً من سادة القبائل في العصر الجاهلي يعرفون بالحكم وضرب الامثال ، وممن عرف بذلك اكثم بن صيفي التميمي [2] ، وعامر بن الظرب [3] وكان حكما للعرب تحتكم اليه ، وقد افتخر به ذو الاصبع العدواني في بعض شعره [4] ويكاد لا يوجد في العصر الجاهلي سيد او خطيب مشهور الا وتضاف اليه جملة من الحكم والامثال .

ونرى يا صاحبي ان نرد هذه الامثال الى ثلاثة مصادر هي:

---

(١) مجمع الامثال للميداني ١ / ٢٣ وايضاً ١ / ٥٦

(٢) انظر بعض حكم اكثم في مجمع الامثال للميداني ٢ / ١٤٥ وجمهرة الامثال للعسكري على هامش مجمع الامثال ١ / ١٢٠ وشرح ابن ابي الحديد على نهج البلاغة ٤ / ١٥٥

(٣) انظر بعض حكم عامر في البيان والتبيين ٢ / ٦٣ وكذلك مجمع الامثال ١ - ٢١١ وايضاً ٢ - ١٨٣

(٤) اغاني طبع دار الكتب ٣ - ٩٠

أ ـ الشعر القديم كقولهم

١ ـ « اي الرجال المهذب » . وهو عجز لبيت للنابغة

ولست بمستبق اخاً لا تلمه على شعث اي الرجال المهذب

٢ ـ « خلا لك الجو فبيضي واصفري » وهو عجز لبيت لطرفه

يا لك من قـــبرة بمعمر خلا لك الجو فبيضي واصفري

٣ ـ « رضيت من الغنيمة بالاياب وهو عجز لبيت لأمرىء القيس

وقد طوفت في الافاق حتى رضيت من الغنيمة بالاياب

٤ ـ «عند النطاح يغلب الكبش الاجم »
٥ ـ «البس لكل حالة لبوسها » } وهمـــا من الرجز القديم

ب ـ الامثال

واما الامثـال التي نرى ان نضعها في باب الانشاء العالي يا صاحبي فهي الامثال التي وردت في القرآن والحديث وما حكاه الحكماء والخطباء ، وما روي عن اناس مجهولين ، وتظهر فيه الصنعة الانشائية كقولهم :

١ ـ « رب عجلة تهب ريثاً » « ورب فزوقة يدعى ليثاً »

٢ – « المرء تواق الى ما لم ينل »

٣ – وقولهم « اطرق كرا [1] ان النعامة في القرى »

فاذا انعمنا النظر يا صاحبي في هذه الامثال رأينا ان فيها من اثر الصنعة الكلامية ما لا يصدر الا عمن عرفوا فن الكلام ومارسوه واتقنوا مداخله

ج – اقوال العامة .

ومما وصلنا من اقوال العامة الامثال التي اصبحت فيما بعد من باب الانشاء العالي لانها لم تبق كما كانت عليه وانما هذبت على مر الزمن كقولهم :

١ – « ما لي سارحة ولا رايحة » اي ليس له شيء

٢ – « بقل شهر وشوك دهر » لمن يقصر خيره ويطول شره

٣ – « برز نارك وان هزلت فارك » أي آثر الضيف بما عندك وان نهكت جمل وافتقرت

٤ – « شر الناس من ملحه على ركبته » يضرب للنزيق السريع الغضب

٥ – « لا ينبت البقلة الا الحقلة » يضرب للكلمة الخسيسة

---

(١) كرا ترخيم كروان وهو طائر معروف ويضرب لمن لا غناء عنده ويتكلم

من الرجل الحسيس

ويبدو لنا يا صاحبي ان هذه الامثال تمثل لغة العامة وليس فيها اثر للصنعة الانشائية ، والتكلف اللغوي ، ونحن لا ننكر انه كان هنالك لغة عامية يتعاطاها الناس في حياتهم العادية ، ولكنها لم تكن بعيدة عن الفصحى بعدها اليوم ، بعد ان اختلط العرب بالاعاجم وبعد ان اصبحت اللغة العربية لغة الامم المغلوبة ولا بد لنا من القاء نظرة عابرة على الامثال الفصيحة ، لأننا نرى فيها افضل شواهد يمكن ان يتعرف بها الباحث الى النثر الذي نشأ في الاوساط الادبية في ذلك الحين . وتمتاز الامثال الفصيحة بالقصر وحسن المبنى ، وجودة السبك ، وهذا مما سهل حفظها على الذاكرة ، وجعلها تنتقل من جيل الى جيل ، ومن هذه الامثال يا صاحبي قولهم :

« احلبت ناقتك ام اجلبت » ، اي انتجت إناثاً فتحلبها ام ذكوراً فتجلبها للبيع . « ضوارب بثت لعرف باليد »

الضوارب : النياق التي تضرب حالبها ؛ والعرف : قروح تخرج باليد . اي نياق سيقت لذي قروح بيده ليحلبها . يضرب لمن كلف لما يعجز عنه ؛ « كمستبضع التمر الى هجر » قال ابو عبيدة وهو من الامثال القديمة . وقد اقتبسه النابغة

الجعدي ، فقال :

وان امرءاً أهدى اليـــك قصيدة

كمستبضع تمراً الى ارض خيبرا

«لا في العير ولا في النفير» اول ما قاله ابو سفيان ويضرب لمن يحط امره ويصغر قدره .

وبجمل القول ، اننـا ذكرنا قليلا من كثير مما وصلنا من الامثال القديمـــة ؛ ونحن لا ننسب كل ما جمع من الامثال بالعصر الجاهلي ، بـــل نرجح أنها لا تخلو من النحل ؛ لان الاسلام لم يغير من طبيعة البداوة وعاداتها ، الا فيما يتصل بالعاطفة الدينية ؛ ويكفي ان نقول ان شعر شعراء البـلاط الاموي ، وخاصة شعر الاخطل والفرزدق وجرير ، جاء متمما للشعر القديم وتمتاز الامثال القديمة بتقديم المسند على المسند اليه ، والقيود على المقيدات ، وبقصر العبارة ، وشدة الاقتضاب والتلميح ، وبعد الاشارة والايماء . ويبدو انهم كانوا يتعمدون الانغام الموسيقية في امثالهم لتسهل على الحفظ ، كقولهم : « وعند جهينه الخبر اليقين » ولا ضرورة لاقحام الواو في هذا المثل ، الا لاتمام النغم الموسيقي ، وما يصدق على هذا المثل يصدق على سواه مما يضيق

المقام بذكره هنا .

ولكننا نرى أن ننقل لك طائفة قليلة من هذه الأمثال التي يسودها النغم الموسيقي حتى لا تملنا .

أن البغات بأرضنا يستنسر – في بيته يؤتى الحكم – ان البلاء موكل بالمنطق – كل فتاة بأبيها معجبة – فان غداً لناظره قريب – الى حيث القت رحلها أم قشعم – ان الشقي وافد البراجم – إياك اعني ، فاسمعي يا جارة .

الفصل الخامس

سجع الكهان

قال لي صاحبي متهكما ، مرسلا التهكمات الواحدة تلو الاخرى : « الم اقل لك انك متأثر باسلوب الدكتور طه حسين ايما تأثر ، ومع ذلك فانك تتحامل عليه وتحاول تغطية نور الشمس براحتك ، وتتطاول على من لست اهلا للتطاول عليه . . »

قلت : « لم اقرأ يا صاحبي من مؤلفات الدكتور طه حسين على كثرتها ، الا النزر اليسير ، حتى اتأثر باسلوبه واحذو حذوه واكتب بطريقته . ويبدو لي ، يا صاحبي انك تسيء الظن بي وتتهمني بما ليس بي ، وترى انني اتحامل على الدكتور طه حسين فتسخر مني وتتهكم علي . والواقع انني في غنى عن التحامل على هذا الاديب وعلى سواه من الادباء ، ولكن لي رأي احببت ان ابديه لك في هذا الحديث ، ففهمت منه ما لا يجب ان يفهمه العقلاء ، وعلى كل حال فلا لوم عليك ولا تثريب ، ولك مطلق الحرية في ابداء رايك ، وفي مظاهرة من تشاء ، ومناهضة من تشاء . وأرى يا صاحبي ان لا تشت بي عن الموضوع ،

وان تعفيني من هذا النقاش ، لاعود بك الى موضوع بحثنا ، وهو سجع الكهان .

كانت عند العرب في العصر الجاهلي طائفة تدعي التكهن وانها تطلع على الغيب ، وكان كل كاهن منها يزعم انه سخر له رئي [1] من الجن يسترق له السمع فيعرف - عن طريقه - ما كتب للناس في الواح الغد . وممن اشتهروا بهذا التكهن في الجاهلية سطيح الذئبي ومشق بن مصعب الانماري ، واليهما فزع نصر بن ربيعة ملك اليمن في تفسير رؤيا له [2] . ومن كهانهم ايضاً عوف بن ربيعة الاسدي [3] والمأمون الحارثي [4] ومسلمه الخزاعي [5] وسواد بن قارب المدوسي وقد ادرك

---

(١) البيان والتبيين ١ - ١٩٥

(٢) الكامل لابن الاثير طبع ليدن ١ - ٣٠١ وانظر السيرة النبوية لابن هشام ١ - ١٥

(٣) اغاني طبع دار الكتب ٩ - ٨٤

(٤) اغاني طبع الساسي ٥ - ٧٠

(٥) السيرة الحلبية طبع بولاق ١ - ٥

الاسلام [1] ومن اشهرهم واعظمهم نرى سلمة [2] الكاهن . وقد وجد بجانب هؤلاء الكهنة بعض نسوة عرفن التكهن من مثل الشعثاء [3] الكاهنة ، وكاهنة ذي الخلصة [4] والكاهنة السعدية [5] والزرقاء بنت زهير [6] والعيطلة القرشية [7] .

وقد روت كتب التاريخ والأدب طائفة من اقوال هؤلاء الكهان وخطابتهم ، وكلها تذهب مذهب السجع . واكبر الظن ان كثيراً مما روي عنهم مصنوع وخاصة ما يرويه القالي في كتابه الامالي . وانه لمن الخطأ ان يعتمد باحث على كل ما روي في هذا الباب . على اننا نستطيع بعد ان نرفض اكثر ما يروى من كلامهم أن نعود فنظن بعض الظن - غير متحيزين - أن الكهان يسجعون في خطابتهم ، والا لما استقر عند جميع من نحلوهم بعض الاقوال والخطب انهم يعتمدون على

---

(١) سيرة ابن هشام ١ - ٢٢٣

(٢) البيان والتبيين ١ - ٢٣٠

(٣) مجمع الامثال للميداني ١ - ٩١

(٤) نفس المصدر ١ - ٢٢٣

(٥) نفس المصدر ٢ - ٥٤

(٦) اغاني ساسي ١١ - ١٥٥

(٧) سيرة ابن هشام ١ - ٢٢١

السجع في كهانتهم ، وايضاً فقد جاء في الحديث النبوي ان النبي ﷺ قضى على رجل في جنين بدية ، فقال الرجل : يا رسول الله أأدى من لا شرب ولا اكل ، ولا صاح فاستهل ، اليس مثل ذلك يطل ؟ فانكر النبي عليه السلام هذا الاسلوب على الرجل [1] وقال له : أسجعا كسجع الكهان [2] ؟ وفي رواية انه قال : انما هذا من اخوان الكهان [3] . وما من شك في ان هذا الحديث يدل اكبر الدلالة على أن الكهان كانوا يستخدمون السجع في كهانتهم .

ويقول الجاحظ : « كان حازى (كاهن) جهينة وشق وسطيح وعزى سلمة واشباههم يتكهنون ويحكمون بالأسجاع » ثم يروي من سجع عزى سلمة قوله [4] : « والارض والسماء ، والعقاب والصقعاء واقعة ببقعاء ، لقد نفر المجد بني العشراء ، للمجد والسناء ، [5] .

---

(١) يطل لا يطالب بدمه ، وانظر البيان والتبيين - ١٩٤ وصحيح مسلم طبع الاستانة ٥ - ١١١

(٢) اعجاز القرآن للباقلاني طبع مطبعة الاسلام ص ٣٢

(٣) موطأ مالك طبع هجر بمصر ٢ - ١٩٢

(٤) البيان والتبيين ١ - ١٩٥

(٥) الصقعاء : الشمس . بقعاء : ماء . بنو العشراء : جماعة من فزارة السناء : الرفعة .

[واذا صحت هذه الكلمة لعزى سلمة فانها ترينا أن الكهان كانوا يعتمدون في كهانتهم على السجع كما كانوا يعتمدون على مثل هذه الاقسام بالارض والسماء والعقاب، والصقعاء ، وايضاً فانهم كانوا يعتمدون على الاغراب في الفـــاظهم . وهذه هي السمات العامة التي يمكن ان نستنبطها من خلال النصوص الكثيرة التي رويت من سجعهم ، ونحن نرى هذه السمات واضحة في هذه القطعة الصغيرة التي رواها الجاحظ لعزى سلمـــة ، وهي سمات طبيعيه اذ كانوا يميلون الى الابهام في احاديثهم وخطابتهم وكان لا بد لهذا الابهام ان يعتمدوا على مـــا يصنعون من الاقسام واللفظ الغريب ليتيح لهم ذلك مقـدارا من الرمز والوهم في اساليبهم ، واكبر الظن انهم كانوا يبالغون في ذلك حتى تنبهم معانيهم ، فيكثر فيها الفهم ويكثر الاحتمال والتأويل . ونحن لا نتجاوز الواقع اذا ذهبنا الى ان الكهان كانوا يبنون سجعهم في كثير من جوانبـه على الرمز ، فان كهانتهم كانت تقتضي ان يختاروا الفاظا موهمة توعز بما يريدون دون ان تفصح — في كثير من احوالها — عن شيء مفهوم . ومهما يكن فان حرفة الكهانة في هـــذا العصر اثمرت ضربا طريفاً من الخطابة كان يتكىء على السجع والتوقيع كما كان يتكىء على الاقسام واللفظ

الغريب .

واكبر الظن ان فيما قدمنا من حديث عن سجع الكهان وخطابة الجاهليين وما كان من امثالهم ما يدل دلالة صريحة على ان ما سلم لنا من بقايا نثرهم انما هو بقايا متناثرة من صناعة محكمة دقيقة كانت تستنفد من اصحابها آمادا واسعة من التعب والجهد والنشاط . اذن كان للعرب في اواخر العصر الجاهلي اسلوب مسجع . ونحن اذ نشك في صحة الرواية ، نرجع الى القرآن الكريم لنتتبع اخبار الكهان في اكثر من آية كقول القرآن رداً على المشركين الذين اتهموا النبي تارة بكاهن ، وطوراً بشاعر وآخر بساحر : « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » [1] .

« فذكر فما انت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » [2]

« وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون » [3]

« ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون » [4]

ولقد حسب العرب ، يا صاحبي ، القرآن ضرباً من سجع الكهان لما لمسوه من تقارب في الاسلوب بينه وبين السجع

---

(١) سورة الطور . آية ٣٠ . (٢) سورة الطور آية ٢٩ . (٣) سورة الحاقة . آية ٤١ . (٤) سورة الحاقة آية ٤٢ .

وخاصة في السور الاولى منها . ويقال إن النبي حرم السجع لان الكهـــان كانوا يتكهنون ويحكون كقولهم « الارض والسماء والعقاب والصقعاء ، واقعة ببقعاء » . « لقد نفر المجد بين العشراء للمجد والسناء » . فلما زالت العلة ، بطل التحريم خذ مثلا ، يا صاحبي ، حديث الكاهنة زبراء مع بني رئام .

قالت تحذرهم من الاعـــداء « يا تمر الاكباد ، وانداد الاولاد وشجا الحساد ! هذه زبراء تخبركم عن انباء قبل انحسار الظلماء بالمؤيد الشنعاء ، واللوح الخافق والليل الغاسق والصباح الشارق ، والنجم الطارق والمزن الوادق أن شجر الوادي ليثدوا ختلا ويحرق انيـاباً عصلا ، وان صخر الطود لينذر تكلا لا تجدون عنه معلا ... الخ . » ولو قارنا القسم الثاني من سجع الكاهنة بسورة الشمس : « والشمس وضحيها ، والقمر اذا تلاها والنهار اذا جليها ، والليل اذا يغشيها » لوجدنا شبهاً واضحاً في الاسلوب القسمي وفي تقطيع الجمل ، وتسجيعها ؛ ومثل ذلك ما نقل عن لسان الخزاعي الكاهن عن الحكم بين هاشم وامية ، ومنه : « والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، ومـــا اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر ، ولقد سبق هاشم امية الى المآثر ، اولا منه وآخر »

فاذا قابلت القسم والسجع في هـذا الحديث بسورة الفجر : والفجر [1] وليال عشر [2] والشفع والوتر [3] والليل اذا يسر [4] ، هل في ذلك قسم لذي حجر [5] » . وما يصدق على سورة الفجر يصدق على سورتي التين والمدثر ، وسواهما من مثيلاتها من السور القرآنية ونحن لا نتردد ، يا صاحبي ، في اثبات صحة السجع القديم ، ولا ننكر الوضع فيه ، ومن المعروف أن السجع كان شائعا في الحلقات الدينية والاخلاقيه ولم يخرج القرآن عن الاسلوب الديني في تلك الايام .

فالسجع فيه كثير ، وقد ظل السجع سائداً في الخطب والوعظ الديني في صدر الاسلام وعصر بني العباس يوم ان طغى سيل الاسلوب الديني على اسلوب الخطباء ، ولم يتحرر الكتاب منه الا منذ عهد قريب .

---

(١) سورة الفجر ... آية ١ .
(٢) « « الاية الثانية .
(٣) « « الثالثه .
(٤) « « الرابعة .
(٥) « « الخامسة .

الفصل السادس

الخطابة في عهد الانشاد

قال لي صاحبي : « ما لك لا تحدثنا عن الخطابة في عهد الانشاد ، وتبدي لنا رأيك في هذا الموضوع الخطير ، وانت تعلم ان الدكتور طه حسين انكر ما وردنا من خطب العصر الجاهلي ، وعزاها الى العصور الاسلامية قلت : كان للخطابة شأن عظيم في العصر الجاهلي اذ كان الخطيب لا يقل في منزلته عن الشاعر ، بل يقول ابو عمرو بن العلاء ان الخطيب في الجاهلية كان فوق الشاعر [1] ، ولا غرابة فيما يقوله ؛ لأن الخطيب كان لسان القبيلة فهو الذي يتكلم باسمها في المواسم والمحافل العظام ، وربما كان من اسباب تفوقه على الشاعر انه كان يدعو الى السلم وان تضع الحرب بين القبائل المتخاصمة اوزارها ، بينما كان الشاعر يدعو الى الاخذ بالثأر واشعال نار الحرب ، ولعل ذلك ما جعل ربيعة بن مقروم الضبي يقول [2] :

---

(١) البيان والتبيين ١ - ١٧٠

(٢) اغاني طبع الساسي ١٩ - ٩٣

ومتى تقم عند اجتماع عشيرة
خطباؤنا بين العشيرة يفصل

ويقول ابو زبيد الطائي[1] :

وخطيب اذا تمصرت الأو
جه يوماً في مأقط مشهود

والمأقط : موضع القتال . ومن يرجع الى مدائح الشعراء ومراثيهم لسادة القبائل يجدهم كما يصفونهم بالشجاعة يصفونهم بالخطابة ، يقول الاعشى في مديح قوم[2] :

فيهم الخصب والسماحة والنجدة
جماً والخاطب الصلاق

والصلاق : شديد الصوت . ويقول اوس بن حجر في رثاء فضالة بن كلدة [3]

أبا دليجة من يكفي العشيرة اذ
أسوا من الحطب في نار وبلبال
ام من يكون خطيب قوم اذا حفلوا

---

(١) البيان والتبيين ١ - ١٣٠
(٢) نفس المصدر ١ - ٩٦
(٣) نقد الشعر لقدامة طبع الجوائب ص ٣٥ وانظر ديوان اوس بن حجر طبع فينا ص ٢٢ .

لدى الملوك ذوى ايـد وافضال
الهفـــا على حسن آلائه
على جانب الحمى والحـــارب

ويقول اوس فيه ايضاً [1]
ورقبتـــه جثمان [2] الملو
ك بين السرادق والحاجب
ويكفى المقالة اهـــل الدحا
ل [3] غير مصيب ولا غائب

ورقبته : انتظاره اذن الملوك ، وقـد جعله بين السرادق والحاجب ليدل على مكانته من الملك . ويظهر انهم كانوا يخطبون كثيراً في وفـادتهم على الملوك والامراء ، ونحن نعرف قصة وفد تميم الى محمد ﷺ اذ قام خطيباً بين يديه عطارد بن حاجب بن زرارة [4] وقد افتخر الفرزدق بذلك اذ يقول [5] :

---

(١) البيان والتبيين ١ - ١٣٤
(٢) في الاصل حتات
(٣) الدحال : الخبث والدهاء في حذق وفي الاصل « الرجال »
(٤) تاريخ الطبري : القسم الاول ص ١٧١١ واغاني دار الكتب ٤-١٤٦
(٥) البيان والتبيين ١ - ٢١٣

ومنا خطيب لا يعاب وحامل
اعز اذا التفت عليـــه المجامع

وكانوا يخطبون كثيراً ايضـــاً في حروبهم وفي مجامعهم واسواقهم وفي مغـــامراتهم ومنافراتهم . وفي كل مكان من الجزيرة نجد خطباء منثورين ، في مكة وفي المدينة وفيما وراءهما من قبائل البادية . اما مكة فقد اشتهر فيها عتبة بن ربيعة ، وهو خطيب قريش يوم بدر [1] ومن خطبائهـا ايضاً سهيل بن عمرو الاعلم ، وهو الذي قال فيه عمر للنبي ﷺ : انزع ثنيتيه السفليين حتى يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً ، فقال رسول الله: لا امثل فيمثل الله بي وان كنت نبياً ، دعه يا عمر ، فعسى ان يقوم مقاماً نحمده [2] ولقريش ايضاً خطباء كان ينفر اليهم العرب امثال هاشم وأمية [3] . وكذلك نفيل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب ، واليه نفر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن امية [4]

---

(١) اغاني طبع دار الكتب ٤ - ١٨٧
(٢) البيان والتبيين ١ - ٢٠٧
(٣) شرح النقائض لابي عبيدة طبعة بيفن ١ - ٢٢٤
(٤) تاريخ الطبري : القسم الاول من ١٠٩١

واما المدينة فقد ذكر الجاحظ من خطبائها قيس بن الشماس وثابت بن قيس بن الشماس خطيب النبي ﷺ وسعد بن الربيع وهو الذي اعترضت ابنته النبي صلوات الله عليه ، فقال لها : من انت ؟ فقالت : ابنة الخطيب النقيب الشهيد سعد بن الربيع [١]

واذا تركنا مكة والمدينة الى القبائل المنبطحة في البادية وجدنا ممن اشتهروا فيها بالخطابة ابا عمار الطائي وهو خطيب مذحج كلها [٢] ، وهانىء بن قبيعة خطيب شيبان يوم ذي قار [٣] وزهير بن جناب خطيب كلب وقضاعة [٤] وربيعة بن حذار خطيب بني أسد [٥] واليه احتكم الزبرقان بن بدر والحبل السعدي وعبدة بن الطبيب وعمرو بن الاهتم ايهم اشعر [٦] . ومن الخطباء المشهورين ايضاً في القبائل عامر ابن الظرب [٧] ولبيد بن ربيعة

---

(١) البيان والتبيين ١ - ٢٣٠
(٢) البيان والتبيين ١ - ٢٢٥
(٣) اغاني طبع الساسي ٢٠-١٣٧
(٤) نفس المصدر ٢١ - ٦٥
(٥) نفس المصدر ١٠ - ٦٢
(٦) نفس المصدر ١٢ - ٤٠ وكذلك ٢١ - ١١٣
(٧) اغاني طبع دار الكتب ٣ - ٩٠ والبيان والتبيين ١ - ٢٣٣

العامري الذي يقول[1] :

واحلف، قسا ليتني ولو انـني
واعي على لقمان حكم التدبر

ويقول ايضاً[2] :

والبيض يجتاب الخروق على الوجى
خطيبـاً اذا التف المجامع فيصلا

ومن خطباء القبائل هرم بن قطبة الفزاري [3] وهو صاحب المنافرة المعروفة بين علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل ، وقد رآه عمر يوماً في المسجد فقال له : أرأيت لو تنافرا اليك — يعني علقمة وعامراً — أيهما كنت تنفر ، فقال : يا امير المؤمنين لو قلت فيهما كلمة لاعدتها جذعة ، فقال عمر : لهذا العقل تحاكمت اليك العرب [4] . ومن الخطباء البلغاء قس بن ساعدة خطيب اياد[5] وعمر بن كلثوم خطيب تغلب[6] وهيذان بن شيخ الذي قال فيه

---

(١) البيان والتبيين ١ - ١٤٠
(٢) البيان والتبيين ٢ - ١٣٢
(٣) نفس المصدر ١ - ٢٣٣
(٤) البيان والتبيين ١ - ١٦٨
(٥) نفس المصدر ١ - ٥١ ، ١ - ٢٠٣
(٦) نفس المصدر ٢ - ١١١

الرسول : رب خطيب بن عبس[1] . ومن خطباء غطفان العشراء بن جابر وخويلد بن عمرو خطيب يوم الفجار[2] وقيس بن خارجة بن سنان ويقال انه خطب في حرب داحس والغبراء يوماً الى الليل[3] . ومن خطباء القبائل ايضاً حنظلة بن ضرار خطيب بني ضبة ، وقد طال عمره حتى ادرك يوم الجمل[4] . ولم تشتهر قبيلة بالخطابة اشتهار تميم ، ومن خطبائها المفوهين صنمرة بن صنمرة[5] واكثم بن صيفي[6] وقيس بن عاصم[7] وعطارد بن حاجب بن زرارة خطيب وفد تميم بين يدي الرسول ، وعمرو بن الاهتم المنقري « ولم يكن في بادية العرب في زمانه اخطب منه[8] ؛ وما من ريب في ان هذه الكثرة من الخطباء تدل على ما كانت عليه الخطابة حينئذ من رقي وازدهار .

---

(١) نفس المصدر ١ - ٨٥

(٢) البيان والتبيين ١ - ٢٢٦

(٣) نفس المصدر ١ - ٩٢٢

(٤) نفس المصدر ١ - ٢٢٠

(٥) جمهرة الامثال لابي هلال ١ - ١٦٨

(٦) اغاني طبع الساسي ٥ - ١ ٧٠

(٧) البيان والتبيين ١ - ٥٧

(٨) البيان والتبيين ١ - ٢٢٨

وقد كان لعرب الجاهلية سنن خاصة في خطابتهم ، منها انهم كانوا يخطبون على رواحلهم في المواسم العظام والمجامع الكبار[1] وكان من عاداتهم ان يشيروا اثنـــاء خطابتهم بالعنا والعصي والقضبان والقسي[2] وفي ذلك يقول لبيد[3] :

ما ان اهـــاب اذا السرادق عمه

قرع القسى ، وارعش الرعـديد

وكانوا يمدحون جهارة الصوت وفخامته ويعيبون ضيقه ودقته وان يعترض الخطيب البهر والارتعاش والرعدة[4] او ان يعتريه شيء من الحصر . يقول ابو العيال الهذلي[5] :

ولا حصـــير بخطبته

اذا ما عزت الخطب

وكانوا يكرهون ان يمس الخطيب ذقنه وسباله . يقول معن

---

(١) نفس المصدر ٣ - ٣

(٢) نفس المصدر ١ - ٢٣٧

(٣) نفس المصدر ٣ - ٤

(٤) نفس المصدر ١ - ١٣٠

(٥) نفس المصدر ١ - ٢١

ابن اوس المزني في بعض هجائه[1] :

اذا اجتمع القبائل جئت ردفاً
امـــام الماسحين لك السبالا
فلا تعطي عصا الخطباء فيهم
وقد تكفى المقـــادة والمقالا

واذا كانوا قد عابوا ذلك في الخطيب فانهم مدحوا فيه - على نحو ما يلاحظ الجاحظ في بيانه - شدة المعارضة وظهور الحجة وثبات الجنان وكثرة الريق والعلو على الخصوم في مضايق الكلام ومآزق الخصام[2] .

قال صاحبي وما هذا الانشاد الذي تحدثنا عنه ؟ قلت : « شاءت نواميس الطبيعة ان يكون تطور الامم والجماعات رهن بتطور الافراد ، وشاءت نواميس الطبيعة ايضاً ان يكون نمو الشعور والمخيلة في طفولية الامم والجماعات والافراد اسرع من نمو سائر القوى العقلية والنفسية . وكان ان نتج عن هذا كله ان تقدمت الآثار الشعرية على الآثار النثرية وسبقتها الى الظهور بمعناها الواسع الصحيح .

(١) البيان والتبين ١ - ٢٣٧
(٢) نفس المصدر ١ - ١٣٠

والان تعال معي يا صاحبي قبل ان نتوغل في البحث لنحدد ما نسميه بالاثار الشعرية وبالآثار النثرية .

اعتاد مؤرخوا الأداب في عصرنا ، عصر الادب الكتابي ، ان يعرضوا مولدات الفكر البشري ، على المقاييس والموازين الادبية الحاضرة فقسموا التآليف قسمين متباينين ، وسموا الاول منهما « شعراً » والثاني « نثراً » . واصطلحوا لكل قسم منهما قواعد معينة ، وطرقاً محددة ، تفصله عن القسم الآخر ، وتبقيه الى ما شاء الله ضمن تحديدهم ومصطلحاتهم المتفق عليها . وما هذا الا اننا نستطيع في عصرنا هذا ان نصون تراثنا الادبي من الضياع بفضل الكتابة التي تقوى على كر الايام ومضي الزمن وتقلبات الدهر ، فتحفظ الافكار المجردة عن الحس والخيال ، وابعد التعابير عن الرنة والايقاع .

اما في الاعصر القديمة ، في عهد بداوة الشعب ، في عهد الانشاد عهد الادب الشفهي الاصيل ، قبل ان تعرف الامم الكتابة وتتخذها واسطة لتدوين الآثار الادبية والمولدات الفكرية ، اذ لم يكن من الممكن حفظ نبات افكار المفكر ومنتجات الاديب من الضياع وسيرورتها بين قومه الا اذا صادفت من قلوبهم وتراً حساساً ، وعرضت امام انظارهم صوراً

خلابة ، ونالت من مسامعهم مواقع موسيقية ، فلم يكن من مندوحة للمؤلف والاديب والمفكر عن الالتجاء الى هذه الطرق : العاطفة والخيال ، والموسيقى . وتكون هذه العناصر الاسس الرئيسية لما ندعوه في – عصرنا (عصر الادب الكتابي) شعراً.

فاذا تناولنا اليوم تلك الآثار الادبية القديمة وتعرضنا اليها بشيء من البحث والنقد والتحليل والغربلة ، دونما مراعاة للزمن الذي قيلت فيه ، وقسناها بموازيننا المادية الحاضرة ، فاطلقنا على ما وافق بحورنا منها « شعراً » ، وما خالفها « نثراً » ، وفي رأينا ان فعلنا ذلك نكون قد شططنا في فهم مدلول الادب بنسبتنا نظريات متأخرة استقامت لنا في عصر الادب الكتابي الى قوم عاشوا في عهد الأنشاد ، (عصر الادب الشفهي الاصيل) فلم يتسنى لهم معرفة الفرق بين الشعر والنثر في آثارهم الفنية كالفرق المادي المحدد الذي نعرفه اليوم ؟

ولو انعمنا النظر في اناشيد هوميروس الملحمية لتحققنا انه لم يكن شاعراً ولا ناثراً ، وكذلك لم يكن داود النبي شاعراً ولا ناثراً في مزاميره ، ولم يكن سليمان الحكيم ايضاً شاعراً ولا ناثراً في اناشيده ، وكذلك لم يكن سائر انبياء اسرائيل شعراء ولا ناثرين في نبوآتهم ، ولم يكن « شعراء » الجاهلية

وخطباؤها وكهانها، شعراء ولا ناثرين في «قصائدهم» وخطبهم- واسجاعهم . اجـــل لم يكن جميع هؤلاء شعراء ولا ناثرين - طبقاً المصطلحات الحاضرة - وذلك لأنهم لم يكونوا ليشعروا بالفرق بين الشعر والنثر ... وانما كان لهم نوع واحـــد من الانشاء الفني الادبي ، يؤثر في السامعين فيحملهم على الانتباه ، فالاصغاء ، فالتأثر فالحفظ الى مـــا امكن الحفظ ، الا وهو « الانشاد » نعم كان فنهم « انشاداً » وكانوا « منشدين » .

اننا نتحدث عن « الانشاد » ولكن مـا هذا « الانشاد » الذي نتحدث عنه ؟

انها لفظة تطلق على المجموعات الادبية التي قيلت في عصر الانشادالشفهي. وقداصاب الاستاذفؤاد افرام البستاني في تعريفه للفظة « الانشاد » اذ قال : (اننـا نستعمل لفظة « الانشاد » للدلالة على هذا النـوع من الانشاء الشفهي او من التعبير الفني الذي كان يستند فيه الخطيب او « المنشد » الى عناصر حسية وخيالية وموسيقية تقره في الاذهان ، معتمداً اولا على ذاكرته ثم على تأثر الحاضرين . هذا من جهة المعنى . اما من جهة المبنى ، او الاخراج المادي ، فقـد كان يستند « المنشد » الى اسهل الاساليب البديعية علوقاً بالآذهان واقربها الى الانغام الشعبية

العامة ، وهي التضاد ، والطباق والمقابلة بين التعابير والمقاطع ، والسجع خصوصاً . فان السجعات كانت بمثابة محطات انشائية يقف عندها المنشد والسامع ، فيستريحان . ثم يتابعان طريقهما: الاول في الالقاء ، والثاني في السماع والحفظ . وهناك ايضاً طريقة مهمة لاقرار « الانشاد » وهي تلك الترديدات والمراجعات ، والقوالب التعبيرية وما تجره احيانا من انواع التوقف الاستفهامي . وكلها اساليب لا يزال يلجأ اليها خطباء العصر ، ولا سيما المرتجلون منهم[1] .)

هذا هو « الانشاد » ونعني به الفن الانشائي الذي يظهر عند الامم في بداوتها ، وفي عهد ادبها الشفهي فيكون فنها الادبي الرفيع ، ذلك الفن الذي يكون بمثابة الصلة بين «الشعر » و« النثر » . ولا نغالي اذا قلنا وجزمنا في القول ان ذلك الفن هو الاصل الذي يتفرع عنه « الشعر » و « النثر » ولا يلبثان حتى يستقلا كل الاستقلال في عهد الادب الكتابي .

والآن يتحتم علينا يا صاحبي ، قبل الشروع في الكلام على الخطابة في عهد الانشاد أن نجيب على هذا السؤال لنحل مشكلة

---

(١) راجع الشعر الجاهلي في الروائع ، فؤاد افرام البستاني ص ١٢ طبعة ثالثة بيروت ١٩٤٩

معقدة اختلفت فيهـــا النظريات وتضاربت حولها الآراء عند الباحثين قديماً وحديثاً . واما السؤال الذي نحن بصدد الاجابة عليه الآن فهو : اي هـذين النوعين من الادب يسبق الأخر عادة الى الظهور في الامم والشعوب : الشعر ام النثر ؟ واي هذين الفنين من فنون النثر ، يكون اسبق الى الظهورعادة في الامم الكتابة ام الخطابة ؟

ولا شك ان الاجابة على هذا السؤال تتطلب منـا ان نستعرض حياة الامة العربية ، التي كان شأنها في نشأتها كشأن سائر الامم . نشأت في البادية وعاشت حياة بدوية فطرية ، فكانت حديثة العهد بالوجود ، وحديثة العهد بالتكلم ، وكان كل فرد منها بطبيعة الحال منصرفاً الى قضاء حاجاته الساذجة ، لا يحتاج الا الى نوع من التفاهم البدائي البسيط . فما هي اذن اداة هذا التفاهم عند الامة العربية ، وعند كل امة ؟ لا شك ان تلك الاداة لغة التخاطب . وليست لغة التخاطب في هـــذا الطور لغة الخطابة بمعناها الواسع الفني ؛ وليست شعراً ولا كتابة ، وانما هي نثر غير فني ، وبحكم سنة التطور تنتقل هذه الجماعات من حياتها الساذجة الى حياة معقدة اكثر فاكثر ، وتدخل طوراً جديداً من حياتهـــا ، مخالفاً لحياتها الأولى ،

فتتغلب في هذا الطور ، العاطفة على العقل الذي لم يكن قد نضج بعد ، وتبدأ حياة شعورية جديدة ، وبهذا الانتقال ، يا صاحبي ، تكون هذه الجماعات فرغت من التعبير عن حاجاتها الحيوية ، والفت نفسها مضطرة الى ان يتصل بعضها ببعض وبسواها . وكانت النتيجة الحتمية لهذا الاتصال ان تفجرت في قلوبهم العواطف المختلفة من مودة وخصومه ، وتعظيم وتحقير ، وميل وصدود ، فبم يعبر القوم اذن عن هذه العواطف ، يا صاحبي ؟ ولما يخرجوا بعد من طور الامية الى طور الكتابة والقراءة ؟ لا شك انهم يعبرون عن خلجات نفوسهم وخواطرهم بالشعر وفي هذا الطور لا بد من وقوع خلافات ومنازعات بين افراد الجماعة الواحدة ، وبين جماعة وجماعة . وقد تؤدي هذه الخلافات والمنازعات الى حرب ضروس ؛ وهنا يمثل الشعر دوراً هاماً في اثارة العواطف وتحريك النفوس ، ولكننا نتساءل ، هل يكفي الشعر وحده لحل منازعات القوم ؟ وبيان ذلك ، اعتماد الخطيب على القرينة ، وعلى ذكاء السامع . فيحذف الجمل التي قد تنوب عنها اشاراته وحركاته وملامحه ونبرات صوته . ولا يستطيع ان يحذف الكاتب ما يحذفه الخطيب من الجمل ، لان الكاتب لا يعتمد على القرائن التي يعتمد عليها الخطيب .

ولانه يكتب للغائب عنه . وربما كان الغائب عنه خالي الذهن من الموقف الذي يعبر عنه الكاتب ، او من الحالة التي يصدر عنها في الكتابة . واما شأن الخطيب ، فشأن المحدث ، يعتمد على الاشارة والخطاب لانها اقرب الى طبيعته . والشيء الذي يشير اليه الخطيب يكون غالباً قريباً منه ، ومن سامعه . واما مبعث مخالفة الخطيب في ارجاع الضمائر او عدم عنايته احياناً بهذا الارجاع ؛ كأن يقول الخطيب « انهم » وهو لم يسبق الضمير هنا بجماعة الذكور ؛ أو كأن يقول : « انها » وهو يقصد ان تعود على شيء ربما لم يكن يلائم الضمير . فنرى ان هذا مبعث العبث بالضمائر في لغة الخطابة . ان الخطيب يعول على ذكاء السامعين وانه يعول ، ايضاً ، على قرينة يفهمها هو ، ويفهمها سامعوه . وقبل ان نختم الكلام في هذا الموضوع ، يجدر بنا ان نشير الى ظاهرة أخرى ، لا تقل اهمية عن سابقتها وهي ان كل فن من هذه الفنون ، يكون باديء ذي بدء ، متأثراً بخصائص الفن الذي سبقه الى الوجود الفعلي . ولا بد من ان تكون الخطابة في باديء امرها كثيرة الاسجاع ، قصيرة الجمل ، تكاد كل جملة منها ان تكون معنى مستقلا بذاته عن الاخر : فخصائص الخطابة اذن ، خصائص الشعر من

وجهة عامة . ولا شك ان هـذه الخصائص صفة الوحدات او الابيات التي ينقسم اليها الشعر من وجهة خاصة وتبقى الخطابة مقيدة بلغة الشعر حتى يتقدم بها العهد ، وتتحرر شيئاً فشيئاً عن هذه القيود ، وتصبح لها مميزاتها ، التي تستقل بها عن الشعر جملة واحدة . وآية ذلك ، يا صاحبي ان لغة الخطابة في عهد الانشاد كانت تمتاز بالجمل القصيرة والاسجاع الكثير او بالحكم التي وضع بعضها الى جانب بعض كما توضع الابيات من الشعر سواء بسواء ولا ريب ان لغة الكتابة تشارك لغة الخطابة في بعض خصائصها كالايجاز ، والحذف ، والمخالفـــة في ارجاع الضمائر احياناً . وهذا مما يجعل الكتابة غامضة ملتوية ، كثيرة التعقيد والدوران وتبقى الكتابه كذلك حتى تتخلص رويداً رويداً من هـذه القيود ، والاوضاع ، فتصل الى مثلها الاعلى ، وتظفر بحريتها وخصائصها ، التي تميزها عن خصائص الخطابة بنوع خاص .

بقي علينا ان نورد لك نماذج من خطب عهد الانشاد ، وهي قطع من الوعظ ، يغلب عليها الايجاز ، وتكثر فيها الجمل القصيرة . ومواطن السجع فيهـــا كثيرة ، متينة التركيب ، حسنة الرصف ، سهلة العبارة تكاد تخلو خلواً تاماً من غريب الالفاظ ، ووحشي الكلام . ولعلك تذكر قس بن ساعدة

الايادي امام الخطباء في عهد الانشاد ، واجلهم قدراً ؛ وهو مسيحي من نصارى نجران . ويقال انه اول من صعد المنبر ، وقال : « اما بعد » . وكان زاهداً في الدنيا يضرب المثل بفصاحته ويروى انه ادرك النبي وسمع منه خطبته المشهورة التي انشدها في سوق عكاظ ، وهي خطبة قصيرة الجمل كثيرة الاسجاع . اذا استثنينا آخرها ، فهي تفيض بالسهولة واللين ، واليك بعضها : « ايها الناس . اسمعوا وعوا . واذا سمعتم شيئاً فانتفعوا ، انه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ان في السماء لخبراً ، وان في الارض لعبراً . ليل داج وسماء ذات ابراج ، وارض ذات فجاج ، وبحار ذات امواج ، ما لي ارى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ ارضوا المقام فاقاموا ام تركوا هناك فناموا ؟ ؟ تباً لارباب الغفلة والامم الخالية والقرون الماضية ! يا معشر اياد ، اين الاباء والاجداد ، واين المريض والعواد ، واين الفراعنة الشداد ؟ اين من بنى وشيد ، وزخرف ونجد ؟ اين من بغى وطغى ، وجمع فاوعى وقال اناربكم الاعلى ؟ الم يكونوا اكثر منكم اموالا ، واطول آجالا ؟ طحنهم الثرى بكلكله[1] ، ومزقهم بطوله[2] فتلك عظامهم بالية ، وبيوتهم

(١) كلكله : بصدره

(٢) بطوله : بقوته

خاوية عمرتها الذئاب العاوية كلا ، هو الله الواحد المعبود ، ليس بوالد ولا مولود .

في الذاهبين الاولين من القرون لنا بصائر ، لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر ، ورأيت قومي نحوها يمضي الاصاغر والاكابر ، لا يرجع الماضي الي ، ولا من الباقين غابر (١) ايقنت اني لا محالة ، حيث صار القوم صائر . »

ولعلك تذكر ايضاً اكثم بن صيفي ، وهو احد خطباء عهد الانشاد ، وزعيم الخطباء الذين اوفدهم النعمان ملك الحيرة الى كسرى ، ويروى انه ادرك الاسلام . وكان يعرف بقوة الحجة ، وكثرة الحكم ، والامثال التي تمتاز بالشدة ، والايجاز ، واليك شيئاً من اقواله :

« ان افضل الاشياء اعاليها . واعلى الرجال ملوكها . وافضل الملوك اعمها نفعاً وخيرها الازمنة اخصبها . وافضل الخطباء اصدقها .

الصدق منجاة . والكذب مهواة . والشر لجاجه ، والحزم مركب صعب . والعجز مركب وطيء . اصلاح فساد الرعية خير من اصلاح فساد الراعي . شر البلاد بلاد لا امير فيها ، وشر الملوك من خانه البريء .. » .

(١) غابر : باق

الباب الثاني

النثر في صدر الاسلام

الفصل الاول

القرآن

قال صاحبي : حدثنا عن النثر في صدر الاسلام ، وأود لو تبدأ حديثك عن هذه الحقبة ، بذلك الحدث العظيم الذي ظهر عند منبثق الاسلام ؛ واعني به القرآن . قلت : « يقع القرآن يا صاحبي في مائة وثلاث عشرة سورة ما عدا الفاتحة . وهو اول كتاب عربي ، جمع من الرقاع ومن صدور الحفاظ في عهد ابي بكر ، ثم سلم لعمر بن الخطاب ؛ وبعده اودع عند حفصة ابنته ثم سلم الى عثمان بن عفان ، حيث ضبط ، ونسخ ووزع على الامصار . واما نزوله يا صاحبي ، فقد كان آية آية ، حسب الحاجة ومقتضيات الحال ، في ثلاث وعشرين سنة . وكان اول ما نزل منه الآيه (١) : « إقرأ بسم ربك الذي خلق[1] . خلق

(١) سورة العلق ، الآيات الثلاث الاولى

الانسان من علق[1] . إقرأ وربك الاكرم . » وآخر ما نزل منه الآية (٢) : « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » ويقسم المؤرخون سور القرآن الى قسمين : قسم مكي ، وقسم مدني . فالمكي ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعدها . والمكي ما نزل بمكة ، والمدني ما نزل بالمدينة ؛ والمكي ما جاء خطاباً لاهل مكة . والمدني ما جاء خطاباً لأهل المدينة . ولا ريب ان نزول القرآن كان اعظم حادثة في تاريخ الادب العربية . وانه يعد انموذجاً للادب العربي ولو ان الشعور الديني في العالم الاسلامي يتيح للباحثين تناوله بالبحث من الناحية الفنية ، لاستخرجوا منه تحفاً فنية ادبية رائعة . ويحتم علينا ، يا صاحبي ، الاجابة على سؤال تضاربت الآراء في الاجابة عليه « أشعر القرآن ام نثر ؟ » وقد سبق للدكتور طه حسين ان قال : « القرآن ليس شعراً ولا نثراً، ولكنه قرآن » ولعلنا لا نقسو على الدكتور طه حسين اذا قلنا إن في رأيه مراعاة للشعور الديني . وفي هذا مخالفة لقواعد النقد العلمي الحديث الذي يتجرد من كل عاطفة ، قومية كانت ام دينية . ونحن نشاطر الدكتور زكي مبارك في مخالفته لرأي

(١) سورة المائدة . آية ٢

الدكتور طه حسين . لأننا نرى ان القرآن نثر ، واسلوبه يمثل الاساليب النثرية في تلك الايام . ولو انعمنا النظر في القرآن ، ودققنا في اسلوبه ، لرأيناه لم يخرج في الفاظه واساليبه عن القصص الديني واسجاع الكهان التي كانت شائعة في الحلقات الدينية قبيل ظهور الدعوة الاسلامية. اضف الى ذلك كثرة السجع والموازنة فيه ولم يكن القرآن جديداً على العرب الا في دعوته الى التوحيد ومبادئه الروحية ، وسمو بيانه ، وقوة اعجازه . ولو لم يألف العرب اساليب القرآن ، والفاظاً مثل الفاظه ، ولغة مثل لغته ، لما استطاعوا ان يفهموه ولا أن يجادلوا فيه مدة غير يسيرة من الزمن . وقد ذكر الباقلاني ، يا صاحبي ، في كتابه « اعجاز القرآن » أن القرآن ليس من جنس كلام العرب ، وانكر ان يكون فيه سجع ، مع ان السجع فيه كثير ، الا انه لا يلتزمه التزام مقامات بديع الزمان والحريري ، وما شاكلها . اضف الى ذلك ان القرآن ، يصف نفسه بلسان عربي مبين .

لقد فتح القرآن بحق صفحة جديدة في تاريخ النثر العربي ، اذ سطرت في اعلى هذه الصفحة آي الذكر الحكيم التي كان يتلوها محمد ﷺ ، فيقول الوليد بن المغيرة أحد خصومه :

« والله قد سمعت من محمد كلاما ، ما هو من كلام الانس والجن وان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان اعلاه لمثمر ، وان اسفله لمغدق[1] . ويلاحظ الوليد ملاحظة خاطئة وهي ان القرآن لا يماثل كلام الانس ولا كلام الجن الذي كان يجري على السنة كهانهم ، بل هو طراز وحده ، وانه لطراز يجعلنا لا نؤمن بما آمن به الباقلاني وغيره من علماء العصر العباسي ، اذ ذهبوا الى أن القرآن ليس شعراً وليس نثراً من مألوف نثر العرب ، بل هو اسلوب خاص[2] يقف وحده ، وله بلاغته ، بل اعجازه الذي انقطعت دونه آمـــال العرب في محاكاته او الاتيان بشيء من مثاله .

وهذا ما حمل الدكتور شوقي ضيف ان يقول في كتابه « الفن ومذاهبه في النثر العربي »[3] . « ولما كان القرآن الكريم تفرد له الابحاث الخاصة وكان يعتبر من اسلوب فريد لا شعر

---

(١) انظر تفسير الطبري والزمخشري في سورة المدثر وانظر السيرة لابن هشام ١ - ٢٨٩

(٢) اعجاز القرآن للباقلاني طبع مطبعة الاسلام ص ٣١ . وانظر ايضا مقدمة ابن خلدون طبع المطبعة البهية ص ٤١٧ .

(٣) شوقي ضيف الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ١٧ طبع مطبعة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٣٦٥ هـ ١٩٤٦ م

ولا نثر ، لذلك لن نعرض له في هذا البحث » .

ونحن نؤمن ان القرآن كلام الله وانه تنزيل من لدن حكيم عليم ، ولا ننكر على القرآن قوة اعجازه ، ولكننا نرى ان الباقلاني ومن ذهبوا مذهبه لم يصيبوا كبد الحقيقة ولعلهم تعاموا عنها ارضاء للعواطف الدينيـــة . ولو استعرضنا بعض السور المكية ، لرأينا السجع يغلب عليها ، وتكثر فيها الفقرات القصيرة دون تقيد بالقوافي وكثيراً ما ينتهي بفواصل متقاربة تتوالى فيها اقسام شديدة الوقـــع ، كقوله تعالى : والنازعات نزعاً . والناشطات نشطا . والسابحات سبحاً . فالسابقات سبقاً . فالمدبرات أمرا (١) . » وجمل مصدرة باذا الشرطية كقوله تعالى : اذا الشمس كورت . واذا النجوم انكدرت . واذا الكواكب انتشرت (٢) » ولو تتبعنـــا آيات سورة المرسلات وسورة الرحمن لرأينا فيها كثرة الازدواج المسجوع تارة وغير المسجوع تارة ، وللمسنا في السورة الاولى تكرار الآية « ويل يومئذ للمكذبين . » وفي السورة الثانية تكرار الآية فبأي آلاء ربكما تكذبان » كأنها لازمتان شعريتان . ويسود في القرآن

---

(١) سورة النازعات . الايات الخمس الاولى
(٢) سورة التكوير . الايات الثلاث الاولى

النفس الخطابي . وقد خاطب المشركين ، بقوله : « يا ايها الناس » . وخاطب المؤمنين بقوله : « يا ايها الذين آمنوا » . فهو يندفع في الكلام اندفاعاً خطابيا في بعض السور المدنية ، كما هو الحال في مثيلاتها من السور المكية . واذا قرأنا الايات التالية ، وقارناها بالآيات المكية القديمة ، نشعر اننا انتقلنا من حال الى حال من حيث قوة العبارة ، وانفعال النفس ، لا من حيث التركيب البياني : « ان الدين عند الله الاسلام . وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم . ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب[1] » . « فان حاجوك فقل اسلمت وجهي لله ، ومن اتبعني . وقل للذين اوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم ، فان اسلموا ، فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد[2] . » « ان الله يأتي بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر ، والله لا يهدي القوم الظالمين[3] » . وفي القرآن يا صاحبي

(١) سورة آل عمران آية ١٩ .
(٢) سورة آل عمران آية ٢٠ .
(٣) سورة البقرة آية ٢٥٨ .

من ضروب البلاغة ، ودقة الاشارة[1] ، واحتباك العبارة[2] ، وحسن الايقاع (يقصد به رصف الكلام رصفاً متناسب الاجزاء) وروعة الانتقال (وتعني الوثوب من معنى الى اخر او من حال الى حال) ، وجمال التمثيل (ويقصد به ابراز المتخيل في صورة المتحقق والمتوهم في معرض المتيقن ، والغائب كأنه شاهد ، وهو يؤثر في القلوب . « ما لا يوصف ولا يجارى ، وستظل النفوس الى ما شاء الله تشرئب الى تقليده ، والاعناق تتطاول الى معارضته . ونحن اقصر باعا من ان نلم بما في القرآن من ضروب البلاغة ، لانه وحده المصدر الاوحد ، والعامل الباعث لما صنفه العلماء من علوم المعاني والبيان ، والصرف والنحو . هذا بالاضافة الى كتب التفسير والتشريع وسواها ، وقد وضع ارباب البلاغة في بلاغته مصنفات كثيرة ، وقد جاء في « مفتاح السعادة » على من يتعرض لدرس القرآن وتفسيره ان يتعمق في علوم كثيرة من علوم البلاغة : كالمعاني ، والبيان ، والبديع. وهذه العلوم عند العلماء من اعظم دعائم اصول التفسير ،

---

(١) دقة الاشارة : عرض المعنى باقل ما يمكن من الالفاظ او العبارات .

(٢) احتباك العبارة : ومعنى الاحتباك الشدة والاحكام وتحسين اثر الصنعة في الثوب بسد ما بين خيوطه من الفرج واحكامه مع بقاء الحسن والروعة .

والركن الضروري الذي يعتمد عليه المفسر ليتسنى له ادراك الاعجاز في القرآن ، ولا يتوفر له ذلك الا اذا اجتمعت لديه هذه العلوم . وقال السكاكي في حق المعاني والبيان : « فالويل كل الويل لمن يتعاطى التفسير ، وهو فيهما راجل » وقد افرد العلماء لبدائع القرآن مصنفات كثيرة ، وعددوا من بدائعه مائة نوع او تزيد .

قلنا ، يا صاحبي ، آنفاً ان احتباك العبارة ودقة الاشارة من ظواهر بلاغة القرآن ، وها نحن نورد لك بعض الآيات لتتبين ذلك بنفسك : « فان اعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظاً ان عليك الا البلاغ . وانا اذا اذقنا الانسان منا رحمة فرح بها وان تصبهم سيئة بما قدمت ايديهم ، فان الانسان كفور[1] » . « سيماهم في وجوههم من اثر السجود . ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع اخرج شطأه ، فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا ، وعملوا الخ الآية »[2] .

« قال بل القوا ، فاذا حبالهم ، وعصيهم ، يخيل اليه من

---

(١) سورة الشورى آية ٤٨ .

(٢) سورة الفتح . آية ٢٩ .

سحرهم انها تسعى »[1] —

والادلة كثيرة في آى القرآن ، على احتباك العبارة ، ودقة الاشارة . والذي ينعم النظر في ما جاء في هذا الباب من آي القرآن يلمح فيها الحذف والتقدير .

ومن ظواهر بلاغة القرآن ، حسن الايقاع ، والرنات المطربة ، وتتجلى في اسلوبه الروعة الخطابية ، والوثبات العاطفية ولذلك نرى فيه كثيراً من ضروب البلاغة كالتكرار ، والتمثيل ، والتفخيم ، وما شاكلها . ويمتاز القرآن ايضاً بتقديم القيود على المقيدات ، والصفات على الموصوفات . واليك بعض الادلة على ذلك من آي القرآن ننقلها عن « مفتاح السعادة » : وقد اخذها صاحبه عن احكام الرأي في أحكام الآي » للشيخ شمس الدين بن الصائغ :

تقديم ماهو مؤخر في الزمان نحو : «فلله الآخرة والاولى»[2]

تقديم الصفة الجملة على الصفة المفرد نحو : « ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً »[3] — .

تقديم الضمير على ما يفسره ، نحو : « فأوجس في نفسه

---

(١) سورة طه . آية ٦٦

(٢) سورة النبي آية ٢٥

(٣) سورة الاسراء آية ١٣

خيفة موسى »[1] .

ايثار تذكير اسم الجنس ، نحو : « اعجاز نخل منقعر »[2].

« تأنيث « « ، نحو : « أعجاز نخل خاوية »[3].

ايراد أحد القسمين غير مطابق للاخر ، نحو : « فليعلمن الله الذين صدقوا ، وليعلمن الكاذبين »[4] . (ولم يقل الذين كذبوا)

ايثار اغرب اللفظين ، نحو : « قسمة ضئزى »[5] (ولم يقل جائرة) حذف اسم المفعول : « ما ودعك ربك وما قلى »[6] الاستغناء بالافراد عن التثنية . نحو : « فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى »[7] (بدل فتشقيان) .

اجراء غير العاقل مجرى العاقل نحو : «رأيتهم لي ساجدين»[8] (عن القمر والنجوم) .

العدول عن الماضي الى الحاضر ، نحو : « فريقاً كذبتم

---

(١) سورة طه آية ٦٧

(٢) سورة القمر ٢٠

(٣) سورة الحاقة آية ٧

(٤) سورة العنكبوت ٢

(٥) سورة النجم آية ٢

(٦) سورة الضحى آية ٣.

(٧) سورة طه آية ١١٧ .

(٨) سورة يوسف آية ٤ .

وفريقا تقتلون »[1]

تغيير بنية الكلمة ، نحو : « طور سينين »[2] (بدل سيناء)

وقوع اسم المفعول بدل الفاعل ، نحو : «حجابا مستوراً » بدل (ساتراً) .

ولنضرب لك الان بعض الامثال على روعة الانتقال في القرآن ، لتقف بنفسك عليها ، وترى كيف ينتقل من الخبر الى السؤال ، ومنه الى النداء ، ثم الالتفات انتقالا يزيد في تأثير الكلام ، وقوة وقعه : « ان الذين يلحدون في آياتنا ، لا يخفون علينا . أفمن يلقى في النار خير ، ام من يأتي آمنا يوم القيامة . اعملوا ما شئتم ، انه بما تعملون بصير » [3]

« فاتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم » [4] .

« واضل فرعون قومه وما هدى »[5] .

« يا بني اسرائيل قد انجيناكم من عدوكم ، وواعدناكم

---

(١) سورة آية

(٢) سورة التين آية ٢ .

(٣) سورة فصلت اية ٤ .

(٤) سورة طه اية ٧٨ .

(٥) « « « ٧٩ .

جانب الطور الايمن ، ونزلنا عليكم المن والسلوى »[1]

« واذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، قد علم كل اناس مشربهم . كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الارض مفسدين »[2] .

وقد ذكر الصفدي في «الغيث المنسجم في شرح لامية العجم» نوعاً آخر من الالتفات[3] اسماه الالتفات ، من اسلوب الى اسلوب ، او الخروج من نوع الى نوع ، وسلوك سبيل بعد سبيل ، حتى عد التخلصات الشعرية منه . وقال الاستاذ انيس المقدسي في معرض كلامه عن ظواهر بلاغة القرآن في « تطور الاساليب النثرية » .

« فاذا التفتنا الى القرآن نجد هذا النوع من الالتفات عاماً ، فكثيراً ما ينتقل في السورة الواحدة من قصة الى قصة ، ومن موقف الى موقف انتقالا فجائياً قد يجد فيه القارىء ، او السامع تطرية لنشاطه . واذا دققنا النظر في الالتفات ، وبحثنا في الغاية من العدول عن صيغة الى اخرى ، او عن موقف الى

---

(١) « « ٨٠ .

(٢) « البقرة اية ٦٠ .

(٣) الالتفات ويراد به الانتقال من صيغة الي صيغة .

آخر ، وجدنا ان ذلك لا يكون الا لخصوصية بلاغية كالتعظيم او التحقير ، او التوكيد ، او الايضاح ، وهو لذلك من اوجه البلاغة بل من اركانها الرئيسية ، ثم ضرب الامثال على هذا النوع من الالتفات من آي القرآن فليراجع في « تطور الاساليب النثرية » .

واما امثال القرآن فهي قسمان . جاء القسم الاول منها على سبيل التشبيه ، ومنه قوله تعالى في سورة الرعد : « قل هل يستوي الاعمى والبصير وهل تستوي الظلمات والنور ، ام جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم . قل الله خالق كل شيء ، وهو الواحد القهار ، انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية او متاع زبد مثله . كذلك يضرب الحق والباطل ، فاما الزبد فيذهب جفاء ، واما ماينفع الناس فيمكث في الارض ، كذلك يضرب الله الأمثال[1] » . ومنه ما جاء في سورة الكهف « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فاصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على

---

(١) سورة الرعد آية ١٦ - ١٧

كل شيء مقتدراً »[1] .

واما القسم الثاني فقد جاء امثالا وحكما بالغة ، وهي كثيرة نثبت منها هنا ، قوله تعالى : « قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو اعجبك كثرة الخبيث »[2]

« لا يكلف الله نفساً الا وسعها »[3]

« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة »[4]

« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »[5]

« قضي الامر الذي فيه تستفتيان »[6]

« الآن حصحص الحق »[7]

« وما على الرسول الا البلاغ »[8]

ومن التمثيل مـــا ورد في القرآن على سبيل القصص وهو كثير . والقصص نفسه كثير في القرآن متفرق فيه ، يكاد يشغل

---

(١) سورة الكهف آية ٤٥

(٢) سورة آية

(٣) سورة البقرة آية ٢٨٦

(٤) سورة آية

(٥) سورة آل عمران ٩٢٠

(٦) سورة يوسف آية ٤١

(٧)

(٨) سورة يوسف آية ٥١

معظم اجزائه ، كقصص الانبياء ، واخبار اصحاب الاخدود واصحاب الكهف . وقد اعاب المستشرف نولدكه Noldecke اسلوب القصص القرآني ، وتراءى له الضعف فيه ؛ وحجته في ذلك عدم تسلسل الخبر ، وكثرة التكرار في العبارات القرآنية وكأني بنولدكه أراد أن يقارن بين اسلوب القصص في القرآن وبينه في التوراة . وهذا خطأ لاختلاف الغرض فيهما ، ولان القرآن يكتفي بالاشارة تارة ، ويكرر اخرى ، ويطيل ثالثة. ويأتي القصص في القرآن على سبيل التذكير والتهويل في اسلوب خطابي. وهذا ما يجعل تسلسل الخبر فيه متعذراً . واما التوراة ففيها حوادث تاريخية منظمة تجري فيها الاخبار مجراها الواضح العادي ؛ اضف الى ذلك الامثال ، واسفار الانبياء ، والاناشيد الروحية والحق ان بحث نولدكه حري بالدرس فليراجع في دائرة المعارف البريطانية . بقي ان نجيب ، يا صاحبي ، على سؤال اختلف في الاجابة عليه الباحثون . وهو : أعربي القرآن ام اعجمي ؟ . والجواب على السؤال في القرآن صريح . ولا يعني وجود بعض الالفاظ الاعجمية فيه انه اعجمي كأباريق ، وسندس ، واستبرق . فالعرب عرفوا هذه الالفاظ وعربوها وقد عدد هذه الالفاظ ، وشرح معانيها ، ونقب عن اصل كل

لفظة الاستاذ انيس المقدسي في معرض كلامه عن غريب القرآن في « تطور الاساليب النثريه » فليراجع . ولا مجال للشك في ان القرآن عربي لغته الحجازية وليس بأعجمي . ومجمل القول ان القرآن في اسلوبه لا يجارى لما فيه من ضروب البلاغة ، وحسن السبك وفصيح العبارة ، وقوة التأثير على النفوس وجمال الايقاع وحسن التخلص من موضوع الى آخر من قصص ووعيد وتهديد وتشريع ويرجع اليه وحده الفضل في حفظ اللغة العربية وقد اكسبها مرونة والفاظاً لم تعهدها من قبل .

انتهى الجزء الثاني

اسئلة

١ تحدث عن الامثال القديمة
٢ تحدث عن سجع الكهان
٣ تحدث عن الخطابة في عهد الانشاد

فهرست الجزء الثاني

الفصل الرابع الامثال القديمة صفحة ٢
الفصل الخامس سجع الكهان صفحة ١٤
الفصل السادس الخطابة في عهد الانشاد صفحة ٢٢
الباب الثاني النثر في صدر الاسلام
الفصل الاول ـ القرآن ٤١

منشورات المؤلف

النفائس

الوصف في شعر النابغة الذبياني

وصحة نسبة الشعر الجاهلي

الوصف في شعر امرىء القيس

مراحل النثر القديم الجزء الاول

مراحل النثر القديم الجزء الثاني

مراحل النثر القديم الجزء الثالث (تحت الطبع)

الوصف في شعر الاعشى (يظهر قريباً)

الوصف في شعر زهير (جاهز للطبع)

الوصف في شعر لبيد (جاهز للطبع)

الوصف في شعر طرفه (جاهز للطبع)

الوصف في شعر عنترة (جاهز للطبع)

الوصف في شعر عمرو بن كلثوم (جاهز للطبع)

القرآن اول كتاب نثري عند العرب (جاهز للطبع)

اعجاز القرآن (جاهز للطبع)

بلاغة القرآن (جاهز للطبع)

الوصف في شعر النابغة الجعدي (جاهز للطبع)

الخطابة في العصر القديم (جاهز للطبع)

الخطابة في العصر العباسي (جاهز للطبع)

عبد الله ابن المقفع (جاهز للطبع)

الجاحظ (جاهز للطبع)

الحسن بن سهل (جاهز للطبع)

فن الترسل في العصر العباسي جاهز للطبع

المعري » »

الحريري » »

بديع الزمان الهمزاني » »

ابن عبد ربه والعقد الفريد » »

الاصبهاني صاحب الاغاني » »

ابن العميد » »

القاضي الفاضل » »

مؤلفات اخرى

الحب والجمال — الطبعة الثانية جاهزة للطبع

احاديث الامسيات (نفذ) وصادرته الحكومة الاردنية

على مسرح الحياة (الجزء الاول)

مصرع العدالة . منع من دخول الاردن والعراق والمغرب العربي والسعودية والمحميات

ضحايا وقرابين . صادرته الحكومة العراقية ومنع من دخول الاردن والسعودية والمغرب العربي والكويت والبحرين واليمن والمحميات

خلجات واحاسيس (تحت الطبع)

على مسرح الحياة (الجزء الثاني يصدر قريباً)

منتخبات من التراث الانساني — يصدر قريباً

هل العرب بشر ؟ — يصدر قريباً

ايام مع ليلى الجميلة — يصدر قريباً

ذات العينين الخضراوين — يصدر قريباً

DATE DUE

القاضى ،طه محمد
التفائس: سلسلة ادبية تبحث فى الشعر و
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01033340

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

892.709
Q612nA